٨

من كتابه في

حُجَج النُّبُوَّة

٢٥ – فصل[١] من صدر كتابه

فى حجج النبوة

الحمد لله الذى عرَّفنا نفسَه ، وعلَّمنا دينَه ، وجَعَلنا من الدُّعاةِ إليه ، والمحتجِّين له . فنحن نسأَله تمامَ النِّعمة ، والعونَ على أداءِ شُكره ، وأَنْ يوفِّقنا للحقِّ برحمته ، إنَّه ولىُّ ذلك ، والقادرُ عليه ، والمرغوب إليه فيه ، وصلى الله على محمد وآله وسلم .

ثم إنَّا قائلون فى الأَخبار ، ومخبرون عن الآثار ، ومفرِّقون بين أَسباب الشُّبهة ، وأَسباب الحُجَّة ، ثمَّ مفرِّقون بين الحجّة التى تَلزم الخاصَّةَ دون العامَّة ، ومُخبرون عن الضَّرب الذى يكون الخاصَّةُ فيه حجّةً على العامَّة ، وعن الموضع الذى يكون القليلُ فيه أَحقَّ بالحجة من الكثير ، ولِمَ شاعَ الخبرُ وأَصلُه ضعيف ؟ ولِمَ خَفِىَ وأَصلُه قوىّ ؟ وما الذى يُؤمَن من فساده وتبديله مع تقادُم عصره ، وكثْرة الطاعنين فيه[٢] ، وعن الحاجة إلى رواية الآثار ، وإلى سماع الأَخبار ، وعن أَخلاقِ النَّاس وآبائهم ، ومذاهب أَسلافهم ، وعن سِيَرَ الملوك قبلهم[٣] ، وما صنعت الأَيَّامُ بهم ، وعن شرائع أَنبيائهم ، وأَعلام رسلهم ، وعن أَدب حكمائهم ، وأَقاويل أَئمَّتهم وفُقَهائهم ، وعن حالاتِ من غاب عن أَبصارهم فى دهرهم ، ولِمَ كان الإِخبار على النَّاس[٤] أَخفَّ من الكتمان ؟ ولِمَ

---

(١) ب فقط : « فصل منها » .
(٢) كلمة « فيه » من ط فقط .
(٣) ب : « وعن سر الملوك قبلهم » ، تحريف .
(٤) ب ، م : « عن الناس » .

كان الصَّمتُ أثقلَ عليهم من الكلام ؟ وما الضَّربُ الذى يَقدِرون على كتمانه وطيِّه ، والضَّربُ الذى لا يقدرون إلّا على إذاعته ونَشْره ؟ ولِم اجتمعت الأُمم على الصِّدق فى أُمور ، واختلفت فى غيرها ؟ ولِم حَفِظَتْ أُموراً ونسيتْ سواها ؟ ولِم كان الصِّدق أكثر من الكذب ؟ ولِم كان الصَّمتُ أثقل والقول أفضل ؟

والعجب مِن تركِ الفُقهاءِ تمييزَ الآثار ، وتَرْكِ المتكلِّمين القولَ فى تصحيح الأَخبار ، وبالأَخبار يعرِفُ النَّاسُ النبيَّ من المتنبِّى[1] ، والصَّادقَ من الكاذب ، وبها يعرفون الشَّريعة من السُّنَّة ، والفريضَة من النافلة ، والحَظْرَ من الإباحة ، والاجتماع من الفُرقة ، والشُّذوذ من الاستفاضة[2] ، والرَّدَّ من المعارضة ، والنَّارَ من الجنَّة ، وعامَّةَ المفسَدةِ من المصْلحة[3] .

فإذا نزَّلْتُ الأَخبارَ منازلَها وقسَّمتُها ، ذكرتُ حجج الرسول صلى الله عليه وسلم ، ودلائلَه وشرائعَه وسُنَنَه ، ثم جنَّستُ الآثارَ على أَقدارها ، ورتَّبتُها فى مراتبها ، وقرّبتُ ذلك واختصرتُه ، وأَوضحتُ عنه وبيَّنتُه ، حتَّى يستوىَ فى معرفتها مَنْ قلَّ سماعُه وساءَ حِفظُه ، ومَن كثُر سماعه وجاد حِفظه ، بالوجوهِ الجليلة ، والأَدلَّة الاضطراريّة .

ولم أُردْ فى هذا الكتابِ جمعَ حُجج الرَّسول عليه السلام ، وتَفْصيلَها والقولَ فيها ، لنقضٍ مَسَّها[4] ، أَو لوَهْن كان فى أَصلها من ناقليها

(١) ب : «المتنبئ» بالهمز .
(٢) م فقط : « الإفاضة » .
(٣) م ، ط : « والمصلحة » .
(٤) ب : « لبغض سببها » ط : « لبغض مسها » م : « لبعض مسها » ، والوجه ما أثبت .

والمخبرِينَ عنها ، أَو لأَنَّ طعْنَ الملحِدين نَهَكها وفرَّق جَماعتَها ، ونَقَض قُواها . ولكنْ لأُمورٍ سأَذكرها وأَحتجّ .

وكيف تقصُر الحُجّة عن بُلوغ الغاية ، وتنقُص عن التمام[1] ، والله تعالى المتوكِّل بها ، ومُسخِّر أَصنافِ البريَّة ومهيِّج النُّفوسِ على إبلاغها[2] ، وقد أَخبر بذلك عن نَفْسه فى محكَم كتابه عَزَّ ذكرهُ[3] ، حين قال : ﴿ هو الذى أَرسَلَ رَسُولَه بِالهُدَى ودِينِ الحَقِّ ليُظْهِرَه على الدِّينِ كُلِّه ولو كَرِه المُشْرِكون[4] ﴾ . وأَدنى منازل الإِظهار إظهار الحجَّة على من ضارَّه وخالف عليه .

وقال عزّ ذكره : ﴿ يُرِيدُونَ ليُطْفِئُوا نُورَ اللهِ بأَفْواهِهِمْ واللهُ مُتِمُّ نُورِهِ ولو كَرِهَ الكافرون[5] ﴾ .

وأَخْبَرَ أَنَّه أَمَرَ الأَحمر والأَسود ، ولم يكُنْ ليأْمر الأَقصى إلَّا كما يأْمر الأَدنَى[6] ويأْمر الغائب على الحاضر[7] ، قال الله تعالى لنبيه عليه السلام : ﴿ وما أَرسَلْناك إلَّا كافَّةً للنَّاسِ بشيراً ونَذِيراً[8] ﴾ .

فأَقول : إنَّ كلَّ مُطيقٍ محجوج[9] ، والحُجّة حُجّتان : عِيانٌ ظاهر ،

---

(١) ب : « وينقص عن التمام » ، والوجه ما فى م ، ط .

(٢) ب ، م : « عن إبلاغها » .

(٣) ب : « عن ذكره » ، تحريف .

(٤) الآية : ٣٣ من سورة التوبة . وفى الكتاب العزيز أيضاً : « هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيداً » . الآية ٢٨ من سورة الفتح .

(٥) الآية ٨ من سورة الصف .

(٦) كلمة « إلا » ليست فى جميع النسخ ، كما أن كلمة : « يكن » ساقطة من ب .

(٧) كذا فى الأصول ، والوجه : « إلا كما يأمر الحاضر » .

(٨) الآية ٢٨ من سورة سبأ .

(٩) المطيق : القادر ، والمراد المكلف . وفى ط : « منطيق » . والمنطيق : البليغ ، ولاوجه له هنا .

وخَبَرٌ قاهر. فإذا تكلّمنا فى العِيان وما يفرَّع منه[١] فلا بدَّ من التعارف فى أَصله وفرعِه منه . ولا بدَّ من التَّصادُق فى أَصله ، والتَّعارُف فى فرعه . فالعقلُ هو المستدِلّ ، والعِيان والخبر هما عِلَّة الاستدلالِ وأَصلُه ، ومُحالٌ كونُ الفرع مع عدمِ الأَصل ، وكونُ الاستدلال[٢] مع عدم الدَّليل . والعَقْل مضمَّن بالدَّليل ، والدَّليل مضمَّن بالعَقْل ، ولا بدَّ لكلِّ واحدٍ منهما من صاحبه[٣] ، وليس لإبطال أَحدهما وجهٌ مع إيجاب الآخر .

والعقل نوعٌ واحد ، والدَّليل نوعان : أَحدهما شاهِدُ عِيانٍ يدلُّ على غائب ، والآخر مجىءُ خبرٍ يدلُّ على صدق .

ثم رجعَ الكلام إلى الإخبار عن دلائل النبى صلى الله عليه وسلم وأَعلامه ، والاحتجاج لشواهده وبُرهانِه ، فأَقول :

إنَّ السلف الذين جمعوا القرآنَ[٤] فى المصاحف بعدَ أَنْ كان متفرقاً فى الصُّدور ، والذين جَمعُوا النَّاسَ على قراءَة زيدٍ ، بعد أَن كان غيرُها[٥] مُطلَقاً غيرَ محظورٍ ، والذين حَصَّنوه ومَنعوه الزِّيادةَ والنقصان لو كانوا جمعوا علاماتِ النبى صلى الله عليه وسلم ، وبُرهانَه ، ودلائلَه وآياتِه وصنُوفَ بدائعه ، وأَنواعَ عجائبِه فى مُقَامِهِ وظعنه[٦] ، وعند دعائه واحتجاجِه فى الجَمْع العظيم ، وبحضرة العددِ الكثير الذى

(١) ب : « وما يفرغ » ، تحريف .
(٢) ب ، م : « ويكون » ، صوابه فى ط .
(٣) ط فقط : « من صاحب » .
(٤) ب فقط : « جعلوا القرآن » .
(٥) أى غير قراءة زيد .
(٦) الظعن ، بالفتح والتحريك : السير والارتحال . ب فقط : « وطعنه » بالطاء المهملة ، تحريف .

لا يستطيعُ الشَّكَّ فى خبرِهم إلَّا الغبىُّ الجاهلِ ، والعدوُّ المائِل ، لما استطاعَ اليومَ أن يدفع كَوْنَها وصحَّةَ مَجيئها[١] ، لا زنديقٌ جاحدٌ ، ولا دُهرىٌّ معانِد ، ولا متطرِّفٌ ماجن ، ولا ضعيفٌ مخدوع ، ولا حَدَثٌ مَغْرور ؛ ولكان مشهوراً فى عوامِّنا كشهرته فى خواصِّنا ، ولكان استبصارُ جميعِ أَعيانِنا فى حقِّهم كاستبصارهم فى باطلِ نَصاراهم ومَجوسهم ، ولما وجَد الملحِدُ مَوضِعَ طمعٍ فى غبىٍّ يستميله[٢] ، وفى حَدَث يموِّه له[٣] .

ولولا كثرةُ ضُعفائنا مع كثرة الدُّخلاءِ فينا ، الذين نَطَقوا بأَلسنتنا ، واستعانُوا بعقولنا على أَغبيائنا وأَغمارنا ، لما تكلَّفنا كَشْفَ الظَّاهر ، وإِظهارَ البارز ، والاحتجاجَ الواضح .

إلَّا أَنَّ الذى دعا سلفَنا إلى ذلك ، الاتِّكالُ على ظهورها واستفاضةِ أَمرها .

وإذ كان[٤] ذلك كذلك فلم يُؤْتَ من أُتِيَ من جُهَّالنا وأَحداثنا ، وسفهائنا وخُلعائنا[٥] إلَّا من قِبَلِ ضعف العِناية ، وقلَّة المبالاة ، ومن قِبَلِ الحداثة والغَرارة ، ومن قبلِ أَنَّهم حملوا على عقولهم من دقيق الكلام قبلَ العلم بجليله ما لم تبلغْه قُواهم ، وتتَّسعْ له صدورهم ، وتحملْه أَقدارُهم ، فذهبوا عن الحقِّ[٦] يميناً وشِمالًا ، لأَنَّ مَن لم يَلزم الجادَّةَ تخبَّطَ ، ومَنْ تناول الفَرعَ قبل إحكام الأَصل سَقَط ، ومن خَرَق بنفسه

---

(١) ب : « وصحة بجيها » ، صوابه فى م ، ط .

(٢) فى جميع الأصول : « يستمليه » . واستملاه الكتاب : سأله أن يمليه عليه . ولا وجه له هنا .

(٣) م ، ط : « مموه له » .

(٤) ب ، م : « وإن كان » ، وأثبت مافى ط .

(٥) الخليع : المستهتر بالشرب واللهو ، وأصله الشاطر الخبيث الذى خلعته عشيرته وتبرءوا منه . ط : « وخلفائنا » ، تحريف .

(٦) ط فقط : « عن الحمق » ، محرف .

وكلَّفها فوق طاقتها(١) ، ولم ينَلْ مالا يقدر عليه تفلَّتَ منه ما كان يقدر عليه(٢) .

فإذا كانوا كذلك فإنَّما أُتوا من قِبَلِ أَنفسهم ، ولم يُؤتَوْا من سَلفهم ، أَو لأَنَّ الله تبارك وتعالى صَرف أَسلافنَا بنسيانٍ أَو غيره ليمتحن بذلك غيرَهم فى آخر الزَّمان ، وليعرِّضَهُم لطاعته بالذبِّ عن دينه ، والاحتجاج لنبيه صلى الله عليه وسلم ، وليجرىَ هذا الخيْرَ على أَيديهم ، كما أَجرى أَكثَرَ منه على أَيدى أَسلافهم ، لئلَّا يُبخَس أَحدُ خليقته(٣) من العُلماءِ والفقهاءِ ، ولأَن يَجعَلَ فضلَه مقسَّمًا بين جميع الأَولياءِ ، وإنْ كان الأَوّل أَحقَّ بالتقديم ، والآخِرُ أَحقَّ بالتأْخير ، لِلذى(٤) قدَّموا من الاحتمال ، وأَعطَوْا من المجهود ، ولأَنَّهم أَصلُ هذا الأَمرِ ونحنُ فرعُه ، والأَصل أَحقُّ بالقوَّة من الفرع . وهم السابقون ونحن التابعون ، وهم الذين وطَّئوا لنا ، وكلَّفونا ما لم نكن لنكلِّفَه أَنفُسَنا ، فتجرَّعوا دُوننا المُرَار(٥) ، ومَنحونا رُوحَ الكفاية . ولأَنَّ الله تعالى اختارهم لصحبة نبيِّه صلى الله عليه وسلم ، ولأَن القرآنَ نَطَق بفضيلتهم ؛ والله تعالى أَعلَمُ بمن بعدهم ، والذى جَمَعَ أَسلافَنا(٦) الذين جمعوا النَّاسَ على قراءَة زيد ، دون أُبَىٍّ بن كعبٍ وعبدِ الله بن مسعود ، والذين رأَوْا من قول عبد الله فى المعوِّذتين(٧) ، وقول أُبَىٍّ فى سورتى الحَفْد والخَلْع(٨) .

---

(١) ب ، م : « طاقته » .
(٢) عليه ، ساقطة من ب .
(٣) ب ، م : « لئلايبخس من أحد خليقته » .
(٤) ب ، م : « للذين » ، تحريف .
(٥) المرار ، بالضم : شجر مر .
(٦) أى والله تعالى هو الذى جمع الأسلاف .
(٧) انظر فى ذلك البرهان ١ : ٢٥١ والإتقان ١ : ١٨٤ . وانظر لتعليل عدم كتابته للمعوذتين ولأم الكتاب فى مصحفه ، مقدمه كتاب المبانى نشرة آرثر جفرى ص ٩٣ ، ٩٦ — ٩٧ .
(٨) هذا التصويب من الإتقان للسيوطى ١ : ١٨٤ . وفى جميع الأصول =

ومِنْ تعلُّق الناسِ بالاختلاف ، فكانوا لا يزالون قد رأَوْا الرّجلَ يروى الحرفَ الشاذَّ ، ويقرأ بالحرف الذى لا يعرفونه ، فرأَوْا أَنَّ تحصينَه لا يتمُّ إلَّا بحمل الناس على المقروءِ عندهم[(١)] ، المشهورِ فيما بينهم ، وأَنَّهم إن لم يشدِّدوا فى ذلك لم ينقطع الطمع ، ولم ينزجر الطير[(٢)] ، لأَنَّ رجلًا من العرب لو قرأَ على رجلٍ من خطبائهم وبُلغائهم سورةً واحدة ، طويلة أَو قصيرة ، لتبيَّن له فى نظامها ومَخرجها ،وفى لفظها وطَبْعها ، أَنَّه عاجزٌ عن مثلها . ولو تحـــدَّى بها أَبلغَ العربِ لظهر عجزُه عنها . وليس ذلك[(٣)] فى الحرف والحرفين ، والكلمة والكلمتين .

أَلا ترى أَنَّ الناسَ قد كان يتهيَّأُ فى طبائعهم ، ويَجرِى على أَلسنتهم أَن يقول رجلٌ منهم : الحمد لله ، وإنَّا لله ، وعلى الله توكَّلْنا ، وربُّنَا الله ، وحَسْبُنا اللهُ ونعم الوكيل ، وهذا كلُّه فى القرآن ، غير أَنَّه متفرِّق غير مجتمع ؛ ولو أَراد أَنطَقُ النَّاسِ أَن يؤلِّف من هذا الضَّرب سورةً واحدة ، طويلةً أَو قصيرة ، على نَظْم القرآن وطَبْعه ، وتأْليفه ومخرجه لما قَدَر عليه ، ولو استعان بجميع قَحْطان ومَعدِّ بنِ عدنان .

ورَأَوا[(٤)] بفهمهم وبتوفيقِ الله تعالى لهم أَن يحصِّنوه ممَّا يشكلُ ، ويمكنُ أَنْ يُفتعَل مثلُه من الحرف والحرفين ، والكلمة والكلمتين ،

= : « سورتى العرب » ووجهه ما أثبت من الإتقان . وانظر النصوص فيه . وجاء فى كتاب مقدمتان فى علوم القرآن ص ٧٥ : « وأما ما ذكر عن أبى بن كعب أنه عد دعاء القنوت : «اللهم إنا نستعينك» إلى آخره ، سورة من القرآن ، فإنه إن صح ذلك عنه فإنه كتبها فى مصحفه لا على أنها من القرآن ، بل ليحفظها ولا ينساها احتياطاً ، لأنه سمع النبى صلى الله عليه وسلم كان يقنت بها فى صلاة الوتر » .

(١) ب : « المكروه عندهم » م : « المكروه » فقط ، صوابهما فى ط .

(٢) م فقط : « الطين » .

(٣) ذلك ، ساقطة من ب ، م .

(٤) ب فقط : « فرأوا » .

وقد كانوا عرفوا الابتداعَ الكثير(١) على البلغاء والشُّعراء ، وخافوا إنْ هم لم يتقدَّموا فى ذلك أَنْ يتطرَّفُوا عليه ، كما تطرَّفُوا على الرواية(٢) ، لأَنَّهم حين رأَوْا كثرةَ الرِّواية فى غير ذوِى السابقة ، ورأَوا كثرةَ اختلافها ، والغرائبَ التى لا يعرفونها ، لم يكن لهم إلَّا تحصينُ الشيء الذى عليه مدارُ الأَمر ، وإن كانوا يعلمون أَنَّ الله بالغُ أَمرِه .

فعلَى الأَئمَّة أَن تَحُوط هذه الأُمّة ، كما حاط(٣) السَّلَفُ أَوّلها ، وأَن يعملوا(٤) بظاهر الحيطة ، إذْ كان على الناسِ الاجتهاد(٥) ، وليس عليهم عِلم الغُيوب . وإنَّما ذلك كنحوِ رجُلٍ أَبصر نبيًّا يُحيِي الموتَى فعَرفَ صِدقَه ، فلمَّا انصرفَ سأَله عنه بعضُ من لم يَرَ ذلك ولا صَحّ عنده ، فعليه أَن لا يكتُمه ، وإن كان يعلم أَنَّ الله تعالى سيُعْلِمه ذلك من قِبَلِ غيره ، وأَنَّه عزّ ذكرهُ سيُسمِعُه صِحَّته على حُبِّه وكرهه .

ورأَوْا أَنَّ قراءَةَ زيدٍ أَحقُّ بذلك ، إذْ كانت آخر العَرْض ، ولأَنَّ الْجمْعَ الذين سمِعُوا آخر العرض أَكثَرُ ممَّن سمع أَوّلَه ، فَحملُوا النَّاسَ على قراءَة زيد ، دونَ أُبيٍّ وعبدِ الله ، وإنْ كان الكلُّ حَقًّا ، إذ كان رُبَّ حقٍّ فى بعض الزَّمان أَقطعُ للقيل والقال ، وأَجدرُ أَن يُميتَ الخلاف ، ويحسمَ الطمع . فتركوا حقًّا إلى حقٍّ العملُ به أَحَقّ .

ولو أَنَّ فقيهاً رأَى إطباقَ العلماء على صومِ يوم عَرَفة ، واستنكارَهُم الإفطارَ فيه ، فأَفطرَ وأَظهرَ ذلك ليُعلمهم موضعَ الفريضةِ من النافلة ،

(١) ب : « امتناع الكثير » ، م : « المبتاع الكثير » وأثبت ما فى ط .

(٢) المتطرف : الذى لا يثبت على أمر . وفى الأصول : « أن يتطرقوا عليه كما تطرقوا على الرواية » ، مع سقوط « على الرواية » من م . والصواب ما أثبت .

(٣) ب ، م : « أحاط » .

(٤) ب ، م : « وأن يعمل » ، صوابه فى ط .

(٥) ب ، م : « إذا كان » . وكلمة « على » ساقطة من ب .

أو خاف أن يَلحق الفرضَ على تطاوُل الأيّام ما ليس فيه — كان مصيباً ، ولكان قد ترك حقًّا إلى أحقَّ منه .

وللحقِّ درجاتٌ ، وللخلاف درجاتٌ ، وللحرام درجات . ألا ترى أنَّ لوليِّ المقتول أن يَقتُلَ ويصفح ، وأنَّه إنْ قَتلَ قتَلَ بحقٍّ ، وإنْ صفَح صفح بحقٍّ ، والصَّفح أفضَلُ من القتل .

ولو أنَّ رجلًا أخرج ساكناً بيتاً له[1] ، أو اقتضى ديناً له ساعة مَحَلِّه[2] ، أو طلَّق زوجته وما دَخَل بها[3] — لكان ذلك له ، ولحقٍّ فعل[4] . وغير ذلك الحقِّ أولى به .

وكيف لا يكون أولى به وهو أحسن ، والثَّواب فيه أعظم ، وإلى سلامة الصُّدور أقرب .

وقد يكون الأمرانِ حسنَينِ ، وأحدُهما أحسن . وقد يكون الأمران قبيحين ، وأحدهما أقبح .

وبعدُ ، فعلى الناس طاعةُ الأئمَّة فى كلِّ ما أَمَرُوا به ، إلَّا فيما تبيَّن أنَّه معصية . فأمَّا غير ذلك فإنَّه واجبٌ مفروض ، ولازم غير مرفوع .

وعَلِمُوا أيضاً أنَّهم لا يبقَوْن إلى آخر الزمان ، وأنَّ مَنْ يجيءُ بعدَهم لا يقوم مَقامهم ، ولا يُفصِّل الأُمور تفصيلهم . ولو عَرَفوا كمعرفتهم ، وأرادوا ذلك كإرادتهم ، لما أُطيعوا كطاعتهم .

وعلموا أنَّ الأكاذيبَ والبِدعَ ستكثُر ، وأنَّ الفِتَن ستُفْتَح ، وأنَّ

---

(١) بيتا ، ساقطة من ب ، م .
(٢) ب ، م : « واقتضى » . ومحل الدين : وقت حلول أدائه . وفى ط : « عند حلول أجله »
(٣) ب ، م : « ولما دخل بها » ووجه هذه : « ولما يدخل بها » .
(٤) ب ، م : « ولحق فعله »

الفساد سيَفشو ، فكرهوا أنْ يجعلوا للمتطرِّفين علّة(١) ، ولأهل الزَّيغ حُجَّة .

بل لا شَكَّ (٢) أَنَّهم لو تركوا الناس عامّةً يقرءُون على حرفِ فلانٍ وكلّ ما أَجاز فيه فلانٌ عن فلان ، لألحق قومٌ في آخر الزَّمان بهم ما ليس منهم ، ولا يَجرى مجراهم ، ولا يَجوز مَجازَهم .

٢٦ — فصل منه فى الاحتجاج للجمع على قراءة زيد

ولو كان زيدٌ من آل أَبي العاص ، أَو من عُرْض بنى أُميّة ، لوجد ابنُ مسعودٍ متعلَّقاً .

ولو كان بدلَ زيدٍ عبدُ الرحمن بن عوف لوَجَد إلى القول سبيلًا .

ولو كان ابن مسعودٍ رجلًا من بنى هاشم لوجدَ للطَّعن موضعاً .

ولو كان عثمان رضى الله تعالى عنه استبدَّ بذلك الرأْى على علىٍّ بن أَبى طالب كرَّم الله وجهه ، وسعدٍ وطلحةَ والزُّبير رحمهم الله ، وجميعِ المهاجرين والأَنصار ، لوَجَد للتُّهمة مساغاً .

فأَمّا والأَمرُ كما وصفنا ونَزَّلنا ، فما الطاعن على عثمان إلَّا رجلٌ أَخطأَ خُطّةَ الحقّ(٣) ، وعَجِلَ على صاحبه . ولكلِّ بنى آدمَ من الخطأ نصيب ، والله عز ذكره يغفر له ويرحمه .

---

(١) فى جميع الأصول : « للمتطرقين » . وانظر ماسبق فى حواشى ٢٣٠ .

(٢) ب : « بل شك » ، صوابه فى م ، ط .

(٣) ب ، م : « أخطأ خطه » مع سقوط كلمة « الحق » ، والصواب فى ط .

والذى يخطِّئُ عثمان فى ذلك فقد خطَّأَ عليًّا وعبدَ الرحمن وسعداً ، والزُّبيرَ وطَلحة ، وعِلْية الصَّحابة(١) .

ولو لم يكن ذلك رأْىَ علىٍّ لغَيَّرَه ، ولو لم يمكنْه التغيير لقال فيه ، ولو لم يمكنه فى زمنِ عثمان لأَمكنَه فى زَمن نفسه ، وكان لا أَقلَّ من إظهار الحُجّة إنْ لم يَملِك تحويلَ الأُمّة ، وكان لا أَقلَّ من التَّجربة إن لم يكن من النُّجح على ثقة ، بل لم يكن لعثمان فى ذلك ما لم يكن لجميع الصَّحابة ، وأَهل القَدَم والقُدْوة . ومع أَنَّ الوجه فيما صنعوا واضح ، بل لا نَجِدُ لمَا صنعوا وجهاً غير الإِصابة والاحتياط ، والإِشفاقِ والنظر للعواقب ، وحَسْمِ طعنِ الطاعن .

ولو لم يكن ما صنعوا لله تعالى فيه رضاً(٢) لما اجتمع عليه أَوّلُ هذه أَول الأُمّةِ وآخِرُها . وإِنَّ أَمراً اجتمعتْ عليه المعتزلة والشِّيعة ، والخوارجُ والمُرْجِئة ، لظَاهرُ الصَّوابِ ، واضحُ البرهان ، على اختلاف أَهوائهم ، وبغيتهم لكلِّ ما ورد عليهم .

فإن قال قائل : هذه الروافضُ بأَسْرها تأْبى ذلك وتنكره ، وتطعن فيه ، وترى تغييره(٣) .

قلنا : إنَّ الروافض ليست مِنّا بسبيل ، لأَنَّ من كان أَذَانُه غيرَ أَذاننا ، وصلاتُه غيرَ صلاتنا ، وطلاقُه غيرَ طلاقنا ، وعتقُه غيرَ عتقنا ، وحجَّتُه غيرَ حجَّتنا ، وفقهاؤه غير فقهائنا(٤) وإمامه غير إمامنا ،

(١) ط : « وما عليه الصحابة » .
(٢) م فقط : فيما صنعوا » مع سقوط كلمة « فيه » من ب ، م . وأثبت ما فى ط .
(٣) ب ، م : « لغيره » ، والوجه ما أثبت من ط .
(٤) غير فقهائنا ، ساقط من ب ، م .

وقراءته غَيْرَ قراءتنا ، وحلالُه غَيْرَ حلالنا ، وحرامه غيرَ حرامنا ، فلا نحنُ منه ولا هو منّا[(١)] .

ولأَىِّ شيءٍ حامَتْ[(٢)] عن قراءة ابنِ مسعود ، فو اللهِ ما كان أَحدٌ أَفرطَ فى العمريَّة منه ، ولا أَشدَّ على الشِّيعة منه ، ولقد بَلَغَ من حبِّه لعمر رضى الله عنه أَن قال : لقد خشيت اللهَ تعالى فى حبِّى لعمر . فلِمَ يُحامُون عنه وهو كان شجاهم[(٣)] لو أَدرَكَهم .

٢٧ — فصل منه

فآمن اللهُ رجلًا فارقَهم ولزم الجماعةَ ، فإِنَّ فيها الأَنَسَة والحُجَّة[(٤)] ، وتَرَكَ الفُرقةَ فإِنَّ فيها الوَحشةَ والشُّبهة . والحمد لله الذى جَعلَنا لا نفرِّق بين أَئمتنا ، كما جعلنا لا نفرِّق بين أَنبيائنا .

٢٨ — فصل منه

والذى دعانا إلى تأْليف حُججِ الرّسولِ ونَظْمها ، وجَمْعِ وجوهِها وتدوينِها — أَنَّها متى كانت مجموعةً منظومة ، نَشِط لحفظها وتفهُّمها مَنْ كان عسى أَن لا يَنْشَطَ لجمعها ، ولا يقدرَ على نَظْمها ، وجمعِ متفرِّقها ، وعلى اللَّفظ المُؤْثر عنها[(٥)] ، ومَنْ كان عسى أَن لا يعرف وجه مَطلبها ، والوقوعِ عليها .

---

(١) ب ، م : « ولا نحن منه ولا هو منا » ، صوابه فى ط .

(٢) فى جميع الأصول : « جانب » ، والوجه ما أثبت . وانظر ما سيأتى .

(٣) أصل الشجا : ما يعترض فى حلق الإنسان والدابة من عظم أوعود أو غيرهما ، ومنه قول سويد بن أبى كاهل فى المفضليات ١٩٨ :

ويرانى كالشجا فى حلقه   عسراً مخرجــه مـا ينتزع

وفى م فقط : « سحاهم » تحريف .

(٤) الأنس ، بالضم ، والأنسة ، بالتحريك : الطمأنينة . ط فقط : « الأنس » .

(٥) كذا فى جميع النسخ . وأراها « المأثور عنها » . يقال أثر الحديث أثرا : نقله ورواه عن غيره ، فهو مأثور .

ولعلَّ بعض الناس يعرف بعضَها ويَجهلُ بعضها .

ولعلَّ بعضهم وإن كان قد عَرفَها بحقِّها وصِدْقها فلم يعرفْها من أَسهلِ طُرقها ، وأَقربِ وجوهها .

ولعلَّ بعضهم أَن يكون قد عَرف فنسِيَ ، أَو تهاون بها فعَمِيَ ، بل لا نشكُّ أَنَّها إذا كانت مجموعة محَبّرة[١] ، مستقصاةً مفصَّلة ، أَنَّها ستزِيد[٢] فى بصيرة العالِم ، وتَجْمع الكلّ لمن كان لا يعرف إلَّا البعض ، وتُذكِّر النَّاسِيَ ، وتكون عُدَّةً على الطاعن[٣] .

ولعلَّ بعضَ من أَلحَدَ فى دينه ، وعَمِيَ عن رُشْدِه ، وأَخطأَ موضعَ حَظِّه[٤] أَن يدعُوَه العُجْبُ بنفسه ، والثِّقةُ بما عنده ، إلى أَن يلتمس قراءَتها ، ليتقدَّم[٥] فى نَقْضها وإفسادها ، فإذا قرأَها فهمها ، وإذا فهمها انتبهَ من رَقْدته[٦] ، وأَفاقَ مِنْ سكرته[٧] ، لعزِّ الحقِّ ، وذُلِّ الباطل ، ولإشراف الحجَّة على الشُّبهة[٨] ، ولأَنَّ من تفرَّد بكتابٍ فقرأَه ليس كمن نازع صاحبَه وجاثاه[٩] ، لأَنَّ الإنسان لا يُباهِي بنفسه[١٠] ،

(١) من تحبير الخط والشعر ونحوهما ، أى تحسينه ، ب ، م : « مخيرة » صوابه فى ط .
(٢) ب ، م : « سيزيد » ، صوابه فى ط .
(٣) فى جميع الأصول : « ويجمع » و « يذكر » و « يكون » ، صوابها كلها بالتاء كما أثبت .
(٤) ب فقط : « خطه » ، تحريف .
(٥) ب ، م : « ليقدم » ، صوابه فى ط .
(٦) م فقط : « فإذا قرأها وفهمها انتبه من رقدته » .
(٧) ب ، م : « عن سكرته » .
(٨) ب فقط : « ولإشراق » بالقاف .
(٩) المجاثاة : أن يجلس مع خصمه على ركبتيه للخصومة . وفى البيان والتبيين ٣ : ٦ : « وبالأرجاز عند المتح وعند مجاثاة الخصم » . وفى ب ، م : « وحاثاه » ، وفى ط : « وجافاه » صوابهما ما أثبت .
(١٠) ب ، م : « نفسه » ، صوابه فى ط .

والحقُّ بعدُ قاهرٌ له . ومع التَّلاقى يحدُث التَّباهى ، وفى المحافل يقلُّ الخُضوع ، ويشتدُّ النُّزوع .

ثمّ رجَع الكلامُ إلى حاجة النَّاسِ إلى استماع الأَخبار ، والتفقُّه فى تصحيح الآثار ، فأَقول : إنَّ الناس لو استغنَوْا عن التَّكرير (١) ، وكُفُوا مَئونةَ البحثِ والتنقير (٢) لَقلَّ اعتبارُهم (٣) . ومن قلَّ اعتبارُه قلَّ عِلمُه ، ومَن قلَّ علمه قَلَّ فضلُه ، ومن قَلَّ فضلُه كثُر نقصه ، ومن قلَّ علمه وفَضْلُه وكثُر نقصه لم يُحمَد على خيرٍ أَتاه ، ولم يُذَمّ على شرٍّ جناه ، ولم يَجِدْ طعمَ العِزّ ، ولا سُرور الظَّفَر ، ولا رَوْح الرّجاءِ ، ولا بَرْدَ اليقين ، ولا راحة الأَمن .

وكيف يُشكر من لا يقصد ، وكيف يُلام من لا يتعمّد ، وكيف يُقْصَد من لا يعلم . وما عسى أَن يَبلُغَ قدرُ سرورٍ من لا يحسن من السُّرور إلّا ما سُرَّ به حَواسُّه (٤) ومَسَّه جِلدُه (٥) .

وكيف يأْتى أَربحَ الأَفعال ، وأَبعدَ الشرّيْن من ركِّب فى شراسة السِّباع (٦) وغَباوة البهائم ، ثمّ (٧) لم يُعط الآلةَ التى بها يستطيع التفرقة (٨) بين ما عليه وله ، والعِلمَ بمصالحِهِ ومفاسده ، فيقوى بها على عصيان طبائعِه ، ومُخالفةِ شَهَواته ، وبها يعرف عواقبَ الأُمور ، وما تأْتى به

---

(١) فى جميع الأصول : « قد استغنوا عن التكرير » ، والصواب ما أثبت .
(٢) ب فقط : « وكفوا عن مئونة البحث والتنقير » .
(٣) ب ، ط : « لقلة اعتبارهم » ، صوابه فى م .
(٤) ب ، م : « وحواسه » ، والوجه حذف الواو كما فى ط .
(٥) ب فقط : « ومس جلده » .
(٦) ب ، م : « من ركب فى شرارة السباع » ، ط : « من ركب شراسة السباع » صوابهما ما أثبت .
(٧) ثم ، ساقطة من ب .
(٨) ب ، م : « تفرقة » .

الدُّهور[١]، وفضْلَ[٢] لذَّةِ القلب على لذَّة البدن .

وإنَّ سرور الجــاهل لا يَحسُن فى جَنْب سرور العالِم ، وإنَّ لذَّةَ البهائم لا تَعشُر[٣] لذَّة الحكيم العالم .

وأىُّ سرور كسرور العزِّ والرِّياسة ، واتِّساعِ المعرفة ، وكثرةِ صواب الرّأْى ، والنُّجح الذى لا سَبَبَ له إلَّا حُسْنُ النَّظر والتقدُّم[٤] فى التدبير ، ثم العلمُ بالله وحده ، وأنَّك بعرض ولايته والجاهِ عنده ، وأنَّه الذى يرعاك ويكفيك ، وأنَّك إذا عملت اليسيرَ[٥] أعطاك الكثير ، ومتى تركت له الفانىَ أعطاك الباقى ، ومتى أدبرتَ عنه دعاك ، ومتى رجعتَ إليه اجتباك ، ويحمدك على حقك ، ويُعطيك على نظرِك لنفسك ولا يُفْنيكَ إلَّا ليُبْقيَك[٦] ، ولا يُميتُك إلَّا ليحييَك ، ولا يمنُعك إلَّا ليعطيك . وأنَّه المبتدئ بالنعمة قبل السؤال ، والناظر لك فى كلِّ حال .

وهذا كلُّه لا يُنال إلَّا بغريزة العقل . على أنَّ الغريزة لا تنال ذلك بنفسها ، بما باشرَتْه حواسُّها ، دون النَّظر والتفكُّر ، والبحثِ والتصفُّح .

ولن ينظر ناظرٌ ولا يفكر مفكِّرٌ[٧] دون الحاجة التى تبعثُ على

---

(١) ب : « وما يأتى به الدهور » .

(٢) الفضل : الزيادة . وفى ب ، م : « وفضلة » ، وإنما الفضلة والفضالة : البقية من الشىء ، فالوجه ما أثبت من ط .

(٣) تعشرها : تبلغ عشرها . ب ، م : « لا يعشر » ، صوابه ما أثبت . وفى ط : « لاتعادل » .

(٤) فى جميع الأصول : « والتقديم » .

(٥) ب : « علمت اليسير » .

(٦) ب ، ط : « ولا يغنيك » ، وأثبت مافى م . وفى جميع الأصول : « إلا ليقيك ». والمراد بالإبقاء هنا الإبقاء الأبدى فى الآخرة .

(٧) ب : « ولم ينظرنا ولا فكر مفكر » ، صوابه فى م ، ط .

الفكرة[١] ، وعلى طلب الحيلة . ولذلك وضع الله تعالى فى الإنسان طبيعة الغضب ، وطبيعةَ الرضا ، وطبيعة البُخْل والسخاء ، والجزع والصَّبر ، والرِّياءِ والإخلاص ، والكِبْر والتَّواضُع ، والسُّخط والقناعة ، فجعلها عروقاً . ولن تفِيَ[٢] قوّة غريزة العقل بجميع[٣] قوى طبائعه وشَهواته ، حتّى يقيم ما اعوجَّ منها[٤] ، ويسكِّن ما تحرّك ، دون النَّظر الطويل الذى يشدُّها ، والبحث الشديد الذى يشحَذها ، والتجارب التى تُحَنِّكُها[٥] ، والفوائد التى تزيد فيها[٦] . ولن يكثُر النظر حتَّى تكثُر الخواطر[٧] ، ولن تكثر الخواطر حتى تكثُر الحوائج[٨] ، ولن تَبعُد[٩] الرّؤية إلَّا لبعد الغاية وشدَّة الحاجة .

ولو أنَّ الناس تُرِكوا وقدْرَ قُوَى غرائزِهم[١٠] ، ولم يُهاجُوا بالحاجة على طلب مصلحتهم والتفكُّر فى معاشِهم ، وعواقِب أُمورهم ، وأُلجِئوا إلى قدر خواطرهم التى تولِّدها مباشرةُ حواسِّهم ، دون أن يُسمِعهم الله تعالى خواطرَ الأوّلين ، وأدبَ السَّلَف المتقدِّمين ، وكُتُبَ ربِّ العالمين ، لمَا أَدركوا من العلم إلَّا اليسير[١١] ، ولمَا ميَّزوا من الأُمور إلَّا القليل .

(١) ب فقط : « على الفكر » .
(٢) ب فقط : « ولم يف » ، تحريف .
(٣) يقال هذا الشىء لا يفى بذلك ، أى يقصر عنه ولا يوازيه . وفى جميع النسخ : « لجميع » ، والصواب ما أثبت .
(٤) ب ، م : « ماعدا منها » ، صوابه فى ط .
(٥) يقال حنكته التجارب : حنكا ، بالفتح ، وحنكاً بالتحريك ، وأحنكته وحنكته تحنيكاً ، واحتنكته : أى هذبته وأحكمته . ب : «الذى يحنكها » م : « التى يحكنها » ، صوابهما فى ط .
(٦) ب ، م: « التى يزيد فيها » ، صوابها فى ط .
(٧) ب ، م : « يكثر الخواطر » ، وأثبت مافى ط .
(٨) ب : « ولم يكثر » صوابه فى م ، ط ، وفى ب ، م : « حتى يكثر الحوائج » ، وأثبت مافى ط .
(٩) ب : « ولن يبعد » صوابه فى م ، ط .
(١٠) م : « تركوا قدر قوى غرائزهم » .
(١١) ب : « الستر » م : « التستر » ، صوابهما ط .

ولولا أنَّ الله تعالى أراد تشريف العالِم وتربيتَه[١] ، وتسويدَ العاقِل ورفْعَ قدره ، وأَنْ يجعله حكيماً ، وبالعواقب عليماً ، لمَا سخَّر له كلَّ شيءٍ ، ولم يسخِّرْه لشيءٍ ، ولَمَا طبعه الطَّبعَ الذى يجىءُ منه أَريبٌ حكيم ، وعالمٌ حليم .

كما أنَّه عزّ ذكرُه لو أراد أن يكون الطفل عاقلًا ، والمجنون عالماً ، لطبعهم طبعَ العاقل ، ولسوَّاهم تسويةَ العالِم ، كما أراد أن يكون السَّبُع وثَّاباً ، والحديدُ قاطعاً ، والسمُّ قاتلًا ، والغِذاءُ مقيماً ؛ فكذلك أراد[٢] أن يكون المطبوع على المعرفة عالماً ، والمهيَّأُ للحكمة حكيماً ، وذو الدَّليل مستدِلاًّ ، وذو النِّعمة مستنفعاً بها[٣] .

فلمَّا علِمَ الله تبارك وتعالى أنَّ الناس لا يُدركون مصالحهم بأنفُسهم ، ولا يَشعُرون بعواقب أُمورهم بغرائِزهم ، دون أن يردَّ عليهم آداب المرسلين ، وكُتب الأوَّلين ، والأَخبار عن القرون ، والجبابرة الماضين — طبَعَ كلَّ قرنٍ من الناس على أخبار من يَليه ، ووضع القَرن الثانىَ دليلًا يُعلَم به صدقُ خبرِ الأوَّل ؛ لأنَّ كثرة السَّماع للأخبار العجيبة ، والمعانى الغريبة ، مَشْحَذةٌ للأَذهان ، ومادَّةٌ للقلوب ، وسببٌ للتفكير ، وعِلَّةٌ للتَّنقير[٤] عن الأُمور .

وأكثر النَّاس سماعاً أكثرهُم خواطرَ ، وأكثرهم خواطرَ أكثرهم تفكُّراً ، وأكثرهم تفكُّراً أكثرهم علماً ، وأكثرهم علماً أرجحهم عملًا . كما أنَّ أكثر البصراءِ رؤيةً للأعاجيب أكثرهم تجاربَ[٥] ، ولذلك

(١) ب ، م : « وترتيبه » .
(٢) أراد ، من ط فقط .
(٣) ب ، م : « والدليل مستدلا والنعمة مستنفعاً بها » ، صوابه فى ط .
(٤) ب ، م : « للتبقير » ، صوابه فى ط .
(٥) فى جميع الأصول : « تجارباً » ، والصواب ما أثبت .

صار البصير أكثر خواطر[1] من الأعمى ، وصار السميع البصير أكثر خواطرَ من البصير .

وعلى قدر شِدَّة الحاجة تكون الحركة ، وعلى قدر ضَعْف الحاجة يكون السُّكون ، كما أَنَّ الرَّاجيَ والخائف دائبان ، والآيس والآمِن وادِعان .

وإذا كان[2] الله تعالى لم يَخلُق عباده فى طبع عيسى بن مريم ، ويحيي بن زكريا ، وآدم أَبى البشر ، صلوات الله عليهم أجمعين ، وخَلَقَهم منقوصين[3] ، وعن دَرْك مصالحهم عاجزين ، وأَراد منهم العبادة ، وكلَّفهم الطَّاقة[4] ، وتَرَك العِنان[5] للأَمل البعيد ، وأرسل إليهم رسلَه ، وبعث فيهم أَنبياءه ، وقال : ﴿ لِئلَّا يكونَ للنَّاسِ على الله حُجَّةٌ بعد الرسل[6] ﴾ ، ولم يُشهِد أكثَرَ عباده حُجَجَ رُسُلِه[7] عليهم السلام ، ولا أَحضَرَهُمْ عجائب أَنبيائِه[8] ، ولا أَسمعَهُم احتجاجَهم ، ولا أَراهم تدبيرَهم — لم يكن بدٌّ من أَن يُطْلِع[9] المُعاينين على أَخبار الغائبين ، وأَن يسخِّر أَسماعَ[10] الغائبين لأَخبار المعاندين ، وأَن يخالف بين طبائع

(١) ب ، م : « خواطرا » فى هذا الموضع وتاليه ، صوابه فى ط .
(٢) ب : « وإن كان » ، تحريف .
(٣) ط فقط : « ناقصتين » .
(٤) كذا فى جميع النسخ . والمراد : مايطيقون . لا يكلف الله نفسا إلا وسعها .
(٥) العنان : السير أو الحبل الذى تمسك به الدابة . وإطلاق العنان هنا كناية عن اتساع مدى الأمل . وفى جميع الأصول : « العيان » ، والوجه ما أثبت .
(٦) الآية ١٦٥ من سورة النساء .
(٧) ب ، م : « وحجج رسله » ، صوابه فى ط .
(٨) ب : « ولا أخبر » م : « ولا أخضر » ، صوابهما فى ط .
(٩) ب ، م : « يطمع » ، وجهه فى ط .
(١٠) ب ، م : « يسحر » ، صوابه فى ط .

المُخْبرين ، وعِلَلِ الناقلين [١] ، ليدلَّ السامعين ، ومن يجيب من الناس [٢] .

على أَنَّ العددَ الكثيرَ المختلفِى العلل ، المتضادِّى الأَسباب ، المتفاوتى الهِمَم ، لا يتَّفقون على تخرُّص الخبر فى المعنى الواحد [٣] ، وكما لا يتَّفقون على الخبر الواحد على غير التَّلاقى والتراسل إلَّا وهو حقٌّ . فكذلك [٤] لا يمكن مثلَهم فى مثل عللهم التَّلاقى عليه ، والتَّراسلُ فيه .

ولو كان تلاقيهم ممكناً ، وتراسُلُهم جائزاً لظهر ذلك وفشا ، واستفاضَ وبدا .

ولو كان ذلكِ أَيضاً ممكناً ، وكان قولًا متوهَّماً لبطلتِ الحُجَّة ، ولَنُقِضَتِ العادةُ [٥] ، ولفَسَدت العبرة ، ولعادت النَّفْسُ بعلَّة الإِخبار جاهلة ، ولكان لِلناس [٦] على الله أَكبرُ الحجّة . وقد قال الله جل وعز : ﴿ لئلَّا يَكُون للنَّاسِ عَلَى اللهِ حُجّةٌ بَعْدَ الرُّسُل [٧] ﴾ ، إذْ كلَّفهم [٨] طاعةَ رُسلِه ، وتصديقَ أَنبيائه ورسله وكتبه [٩] ، والإِيمانَ بجنَّته وناره ، ولم يضَعْ لهم دليلًا على صِدق الأَخبار ، وامتناع الغَلَط فى الآثار ، تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيراً .

---

(١) ب الفقط : « وعلى الناقلين » ، تحريف .
(٢) ط فقط : « ومن يحبب » .
(٣) التخرص ، المراد به الحزر والتقدير والفهم . وسيأتى فى ٢٤٨ س ١٢ : « لايتفقون على تخرص الخبر الواحد فى المعنى الواحد فى الزمن الواحد » .
(٤) ب ، م : « فلذلك » ، صوابه فى ط .
(٥) ب ، م : « ولانقضت » ، تحريف .
(٦) ب : « الناس » ، محرفة .
(٧) من الآية ١٦٥ من سورة النساء .
(٨) ط : « إذا كلفهم » .
(٩) ب : « أنبيائه وكتبه » م : « أنبيائه ورسله » ، وأثبت النص كاملا من ط .

واعلمْ أَنَّ الله تعالى إنَّما خالف بين طبائع الناس ليوفِّق بينهم ، ولم يحبَّ أن يوفِّق بينهم فيما يخالف مصلحتَهم ؛ لأَنَّ الناسَ لو لم يكونوا مسخَّرين بالأَسباب المختلفة ، وكانوا مجْبَرين[١] فى الأُمور المتَّفقة والمختلفة ، لجاز أَن يختاروا بأَجْمعِهم التجارة والصناعة ، ولجاز أَن يطلبوا بأَجمعهم المُلكَ والسِّياسة[٢] . وفى هذا ذهابُ العَيش ، وبُطلان المصلحة ، والبَوَار والتَّواءِ[٣] .

ولو لم يكونوا مسخَّرين بالأَسباب ، مُرتَهَنين بالعِلَل لرغبوا عن الحِجامة أَجمعين ، والبيطرةِ ، والقِصابة ، والدِّباغة . ولكنْ لكلِّ صنفٍ من الناس مُزَيِّنٌ عندهم ما هم فيه ، ومُسهِّلٌ ذلك عليهم . فالحائك إذا رأَى تقصيراً من صاحبه أَو سوءَ حِذْقٍ أَو خرقا[٤] قال له : يا حجَّام ! والحجَّام إذا رأَى تقصيراً من صاحبه قال له : يا حائك ! ولذلك لم يُجْمعوا على إسلام أَبنائهم فى غير الحِياكة والحِجامة ، والبيطرة والقِصابة .

ولولا أَنَّ الله تعالى أَراد أَن يجعل الاختلاف سبباً للاتِّفاق والائتلاف ، لما جعل واحداً قصيراً والآخرَ طويلًا ، وواحداً حسَناً وآخرَ قبيحاً ، وواحداً غنيًّا وآخر فقيرا[٥] ، وواحداً عاقلًا وآخر مجنوناً ، وواحداً ذكيًّا وآخر غبيًّا . ولكنْ خالفَ بينهم ليختبرهم ، وبالاختبار يُطيعون ، وبالطَّاعة يَسعدون . ففرَّق بينهم ليجمعَهم ، وأَحبَّ أَن يجمعهم على

---

(١) ب فقط : « مخبرين » تحريف .
(٢) ط : « لجاز أن يختاروا بأجمعهم الملك والسياسة » بسقوط ماقبل « بأجمعهم » الثانية .
(٣) التوى ، مقصور : الهلاك ، كما فى اللسان والقاموس . وفى ب : « النواء » ، وفى م ، ط : « التواء » ، صوابهما ما أثبت .
(٤) الخرق ، بالضم ، وبالتحريك : ضد الرفق ، وأن لايحسن الرجل العمل .
(٥) ب ، م : « والآخر فقيراً » .

الطَّاعة ليجمعهم على المَثُوبة . فسبحانه وتعالى ، ما أَحسنَ ما أَبلى وأَوْلَى ، وأَحكم ما صنع ، وأَتْقَنَ ما دبَّر ! لأَنَّ الناس لو رغبوا كلُّهم عن عار الحياكة[١] لبقِينا عُراةً . ولو رغبوا بأَجمعهم عن كدِّ البناءِ لبقينا بالعَرَاءِ . ولو رغبوا عن الفِلاحة لذهبت الأَقوات ، ولَبطلَ أَصلُ المعاش . فسخَّرهم على غير إكراه ، ورغَّبهم من غير دعاء .

ولولا اختلافُ طبائِع الناس وعِلَلهم لما اختاروا من الأَشياء إلَّا أَحسنَها ، ومن البلادِ إلَّا أَعْدَلَهَا ، ومن الأَمصار إلَّا أَوْسَطها . ولو كانوا كذلك لتناجَزُوا على طلب الأَواسط[٢] ، وتشاجَروا على البلاد العُلْيا ، ولمَا وسِعَهمْ بلدٌ ، ولماتَمَّ بينهم صُلح . فقد صار بهم التَّسخير إلى غاية القناعة .

وكيف لا يكون كذلك وأَنت لو حوّلتَ ساكِنِي الآجام إلى الفيافى ، وساكنى السَّهل إلى الجبال ، وساكنى الجبالِ إلى البحار ، وساكنى الوَبَرِ إلى المدَر ، لأَذاب قلوبهم الهمّ ، ولأَتى عليهم فَرطُ النِّزاع .

وقد قيل[٣] : « عَمَّر اللهُ البُلدانَ بحبِّ الأَوطان » .

وقال عبدُ الله بن الزُّبير رحمه الله تعالى : « ليس الناسُ بشيءٍ من أَقسامهم أَقنَعَ منهم بأَوْطانهم » .

وقال معاويةُ فى قومٍ من اليمن رَجَعوا إلى بلادهم بعد أَن أَنزلهم من

---

(١) ب فقط : « لوغربوا » تحريف . وفى ب ، م : « من عار الحياكة » ، صوابه فى ط .

(٢) فى اللسان : « تناجز القوم : تسافكوا دماءهم ، كأَنهم أَسرعوا فى ذلك » . ب ، ط : « طلب الواسط » ، وأَثبت مافى م .

(٣) وكذا فى الحيوان ٣ : ٢٢٧ . ونسب القول إلى عمر رضى الله عنه فى رسالة الحنين إلى الأَوطان . انظر رسائل الجاحظ ٢ : ٣٨٩

الشام منزلًا خِصْباً ، وفَرض لهم فى شَرَف العطاء[١] : « يصلون أوطانَهم بقطيعةِ أَنْفُسهم » .

وقال الله جلَّ وعز : ﴿ ولَوْ أَنَّا كَتَبْنا عليْهم أَن اقتُلُوا أَنفُسَكم أَو اخْرُجُوا مِنْ دِيارِكُمْ ما فَعَلُوه إِلَّا قليلٌ منهم[٢] ﴾ . فقرن الضَّنَّ بالأَوطان إلى الضَّنِّ بمهج النفوس[٣] .

وليس على ظهرها إنسانٌ إلَّا وهو مُعْجبٌ بعقْله ، لا يسرُّه أَن له بجميع ما لَهُ ما لِغيره ، ولولا ذلك لماتوا كمداً ، ولذَابوا حَسَدا ، ولكن كلُّ إنسان وإن كان يرى أَنَّه حاسد فى شيءٍ فهو يرى أَنَّه محسود فى شيء .

ولولا اختلافُ الأَسباب لتنازعوا بلدةً واحدةً ، واسمًا واحداً ، وكُنيةً واحدة . فقد صاروا كما ترى مع اختيار الأَشياءِ المختلفة[٤] إلى الأَسماء القبيحة ، والأَلقاب السَّمْجة[٥] . والأَسماءُ مبذولةٌ ، والصّناعات مُباحة ، والمَتاجر مُطلقة ، ووجوه الطُّرق مُخَلَّاة[٦] ، ولكنَّها مُطلَقة فى الظاهر ، مقسَّمة فى الباطن ، وإن كانوا لا يشعرون بالذى دبَّر الحكيم من ذلك ، ولا بالمصلحة فيه .

فسبحانَ من حبَّب إلى واحدٍ أَنْ يسمِّيَ ابنه محمَّداً ، وحبَّب إلى آخر أَنْ يسمِّيه شيطاناً[٧] ، وحبَّب إلى آخر أَن يسمِّيَه عبدَ الله ، وحبّب

(١) ب ، م : « فى شوف العطاء » ، ط : « فى شون العطاء » . والوجه ما أثبت .
(٢) من الآية ٦٦ من سورة النساء .
(٣) ب ، م : « الظن » فى الموضعين ، صوابه فى ط .
(٤) كلمة « الأشياء » من ط فقط . وفى م : « مع اختبار مختلفة » . وصواب الكلام فى ط .
(٥) السمج ، بالفتح ، وككتف : القبيح . ب فقط : « السمحة » تحريف .
(٦) ب : « مخلاة » ، صوابه فى م ، ط .
(٧) ب ، م : « شيطان » .

إلى آخر أن يسمِّيَه حماراً[١] ، لأَنَّ الناس لو لم يُخالَفْ بين عِلَلهم فى اختيار الأَسماءِ والكُنَى ، جاز[٣] أَن يجتمعوا على شيءٍ واحد ، وكان[٢] فى ذلك بُطلان العَلَامات ، وفسادُ المعاملات .

وأَنت إذا رأَيتَ أَلوانَهم وشمائلَهم واختلافَ صُوَرِهم ، وسَمِعتَ لُغاتِهم ونَغَمهم[٤] علمت أَنَّ طبائِعهم وعلَلَهم المحجوبةَ الباطنة ، على حَسَب أُمورهم الظاهرة .

وبعضُ الناس وإن كان مسخَّراً للحِياكة[٥] فليس بمسخَّر للفِسق والخيانة[٦] ، وللإِحكام[٧] والصِّدق والأَمانة .

وقد يسخِّر اللهُ الملك[٨] لقومٍ بأَسبابٍ قديمة وأَسباب حديثة ، فلا يزال ذلك الملكُ مقصوراً عليهم ، ما دامت تلك الأَسبابُ قائمة ، إذا كانوا للمُلْكِ مسخَّرين[٩] ، وكان النَّاس لهم مسخَّرين ، بالجبريَّة[١٠] والنَّخْوة ، والفَظاظةِ والقسوة ، ولطُول الاحتجاب والاستتار ، وسُوءِ اللِّقاءِ والتضييع .

---

(١) ب فقط : « حمار » . وممن سمى به « معقر بن حمار البارقى » ، وممن لقب بذلك « مروان الحمار » .

(٢) ط : « وجاز » بزيادة واو .

(٣) ط : « كان » بدون واو .

(٤) م : « ونغماتهم » .

(٥) ب : وإن كانوا مسخراً للحياكة » ط : « وإن كانوا مسخرين للحياكة» . والوجه ما أثبت من م .

(٦) ب : « للتفسيق والخيانة » .

(٧) ب ، ط : « والأحكام » .

(٨) ط : « يسخر الملك » ب ، م : « يسخر الملة الملك » ووجه هذه الأخيرة ما أثبت .

(٩) ب : « فليس إذ كانوا »، م ، ط : « فليس إذا كانوا ». والوجه حذف « فليس ». وفى ب ، م : « المسخرين » .

(١٠) الجبرية : الكبرياء . وانظر لغاتها الثلاث عشرة فى القاموس . وفى ب ، م : « للجبرية » .

وقد يكون الإنسانُ مسخَّراً لأَمرٍ ، ومخيَّراً فى آخر .

ولولا الأَمر والنَّهى لجاز التسخير فى دقيق الأُمور وجليلها ، وخفيِّها وظاهرها ؛ لأَنَّ بنى الإِنسان[١] إنما سُخِّروا له إرادة العائدة عليهم[٢] ، ولم يسخَّروا للمعصية ، كما لم يسخَّروا للمَفْسَدة .

وقد تستوى الأَسباب فى مواضع ، وتتفاوت فى مواضع[٣] . كلُّ ذلك ليجمع الله تعالى لهم مصالح الدُّنيا ، ومراشدَ الدِّين .

أَلَا ترى أَنَّ أُمةً قد اجتمعت على أَنَّ عيسى عليه السلام هو الله ، وأُمَّة قد اجتمعت على أَنَّه ابن الله ، وأُمّةً اجتمعت على أَنَّ الآلهة ثلاثة ، عيسى أَحدها . ومنهم يتبدَّد[٤] ، ومنهم من يتدهَّر[٥] ، ومنهم من يتحوَّل نِسطوريًّا بعد أَن كان يَعقوبيًّا ، ومنهم من أَسلم بعد أَن كان نَصرانيًّا . ولستَ واجداً[٦] هذه الأُمّة مع اختلاف مذاهبها ، وكثرة تنقُّلها ، انتقلت مرّة واختلفت مرّةً ، متعمدة أَو ناسيةً ، فى يومٍ واحد ، فجعلته – وهو الجمعة – يومَ السَّبت ، ولم تَخطُب فى يوم جُمُعةٍ بخطبةٍ يوم خميس ، ولا غلِطَتْ فى كانونَ الأَوّلِ فجعلته كانونَ الآخِرِ ، ولا بين الصَّوم والإِفطار ؛ لأَنَّ الباب الأَوّل فى باب الإِمكان

---

(١) ب ، م : « لأن الإنسان » ، تحريف .

(٢) م : « الفائدة عليهم » .

(٣) ب : « وقد يستوى » و « يتفاوت » ، صوابهما فى م ، ط .

(٤) يريد : يعبد البد ، بالضم ، وهو الصنم . ب : « يتدبد » م : « يتدبر » ط : « يتذبذب » . وأرى أن الجاحظ قد اشتق هذا الفعل من «البد » ، كما اشتق الفعل التالى من الدهر ، وكلاهما لم تذكره المعاجم .

(٥) يتدهر ، أراد يدين بمذهب الدهرية ، بضم الدال نسبة غير قياسية إلى الدهر بالفتح . وانظر آراءهم المتفرقة فى الحيوان ١ : ٢/١٧ : ٤/١٣٩ : ٨٥ ، ٥/٤٣٢ : ٤٠ ، ٦/٣٢٧ : ٢٦٩ ، ٢٧٠ بالإضافة إلى مادة (الدهرية) فى دائرة المعارف الإسلامية ٩ : ٣٣٧/٣٤٠

(٦) م فقط : « واجدة » تحريف .

lisanarabs.blogspot.com

وتعديل الأسباب والامتحان ، والباب الثانى داخلٌ فى باب الامتناع وتسخير النفوس وطرحِ الامتحان .

وقد زعم ناسٌ من الجُهّال ، ونَفرٌ من الشُّكّاك ، ممن يزعم أنَّ الشَّكَّ واجب فى كلِّ شىءٍ ، إلّا فى العيان ، أنَّ أهل المنصورة[١] وافَوْا مُصلّاهم يومَ خميسٍ على أنّه يومُ الجمعة ، فى زمن منصور بن جُمهور[٢] . وأنَّ أهلَ البَحْرينِ جَلَسوا عن مصلّاهم[٣] يومَ الجمعة على أنّه يومُ خميس ، فى زمن أبى جعفرٍ ، فبعثَ إليهم وقوَّمهم .

وهذا لا يجوزُ ولا يمكنُ فى أهل الأمصار ، ولا فى العدد الكثير من أهل القرى ، لأنَّ الناس مِن بين صانعٍ لا يأْخذ أُجرته ولا راحةَ له دون الجمعة ، وبين تجّار قد اعتادوا الدَّعَة فى الجُمَع[٤] ، والجلوسَ عن الأسواق . ومن معلّمِ كتّاب لا يَصرِف غِلمانَه إلّا فى الجمع . وبين معنىٍّ بالجُمَع يتلاقى هناك مع المعارف[٥] والإخوان والجلساء . وبين مَعْنىٍّ بالجُمَع حرصاً على الصلاة ، ورغبةً فى الثَّواب . ومن رجلٍ عليه موعدٌ ينتظره . ومن صَيْرفىٍّ [يصرف ذلك اليومَ سفاتِجَه[٦] وكتبَ

---

(١) المنصورة هذه كانت قصبة السند ، واسمها القديم « همناباد » قال المسعودى : سميت المنصور بمنصور بن جمهور عامل بنى أمية . وقال هشام : بناها فسميت به ، وكان قد خرج مخالفاً لهارون وأقام بالسند . وانظر معجم البلدان .

(٢) ب : « منصورى بن جمهور » ، وفى ط : « منصورى » فقط . ولمنصور هذا أخبار فى تاريخ الطبرى انتهت بهزيمته وموته عطشاً حين وجه إليه أبو العباس السفاح جيشاً إلى الهند بقيادة موسى بن كعب . وذلك فى سنة ١٣٤ . وكان أول ظهور أمره سنة ١٢٥

(٣) أى لم يذهبوا إلى المسجد يوم الجمعة . ب فقط : « على مصلاهم » ، تحريف .

(٤) ب ، م : « المداعاة فى الجمع » ، صوابه فى ط . وما بعده إلى « الجمع » التالية ساقط من م .

(٥) ب ، م : « تلقى هناك من المعارف » .

(٦) جمع سفتجة ، بضم السين وفتح التاء ، وهى كما فى المصباح : كتاب صاحب المال لوكيله أن يدفع مالا قرضاً لآخر فيأمن بذلك على ماله من خطر الطريق . وفى القاموس : أن يعطى مالا لآخر ، وللآخر مال فى بلد المعطى فيوفيه إياه ثم ، فيستفيد أمن الطريق » . المعطى بضبط =

أَصحابه . ومن جندىٍّ فهو[(١)] يعرف بذلك نَوْبتَه[(٢)] . وبعضٍ كالسُّؤَّال والمساكين والقُصَّاص ، الذين يمدُّون أَعناقهم للجمعة انتظاراً للصَّدقة والفائدة ، فى أُمور كثيرة ، وأَسباب مشهورة .

ولو جاز ذلك فى أَهل البحرين والمنصورة لجاز ذلك على أَهل البصرة والكوفة ، ولو جاز ذلك فى الأَيام لكان فى الشهور أَجْوَز ، ولو جاز ذلك فى الشُّهور لكان فى السنينَ أَجْوَز . وفى ذلك فسادُ الحجِّ ، والصَّوم ، والصلاة ، والزكاة ، والأَعياد .

ولو كان ذلك جائزاً لجاز أَن يتَّفق الشُّعراءُ على قصيدة واحدة ، والخطباءُ على خُطبةٍ واحدة ، والكُتَّابُ على رسالةٍ واحدة ، بل جميعُ النَّاسِ على لفظةٍ واحدة .

وإنَّما نزَّلت لك حالات الناس ، وخبَّرتك عن طبائعهم ، وفسَّرت لك عِللَهم لتعلمَ أَنَّ العدد الكثير لا يتَّفقون على تخرُّص الخبر الواحد فى المعنى الواحد فى الزمن الواحد[(٣)] ، على غير التشاعر[(٤)] ، فيكون باطلًا . وسأُوجِدُك موضع اختلافهم واتِّفاقهم[(٥)] ، وأَنَّه لم يخالف بينهم فى بعض الوُجوه إلَّا إرهاصاً لمصلحتهم[(٦)] ، ولتصحَّ أَخبارهم .

= اسم الفاعل. وثم، أى هناك . واللفظ فارسى معرب، وقد فسرت حديثاً بأنها حوالة صادرة من دائن يكلف فيها مدينه دفع مبلغ معين فى تاريخ معين لأذن شخص ثالث ، أو لإذن الدائن نفسه ، أو لإذن صاحب الحوالة .

(١) هذه التكملة من م، ط . لكن فى م : « يعرف » موضع « يصرف » . مع سقوط كلمة « اليوم » وكلمة « أصحابه » .

(٢) ب ، م : « ذلك بنوبته » .

(٣) التخرص ، سبق تفسيره فى ٢٤١ .

(٤) التشاعر : تفاعل من قولهم شعر بكذا : أحس به . وانظر العثمانية ص ٣ .

(٥) يقال أوجده الشيء : جعله يجده ويظفر به ، كما فى اللسان والقاموس . وفى ط : « وسأبين لك » .

(٦) الإرهاص : الإرصاد ، والإثبات ، والتأسيس .

أَلَا ترى أَنَّ أحداً لم يبعْ قطُّ سِلعةً بدرهمٍ إلَّا وهو يرى أَنَّ ذلك الدِّرهم خيرٌ له من سلعته . ولم يشترِ[١] أَحدٌ قطُّ سلعةً بدرهمٍ إلَّا وهو يرى أَنَّ تلك خيرٌ له من درهمه . ولو كان صاحب السلعة يرى فى سلعته ما يرى فيها صاحبُ الدرهم ، وكان صاحبُ الدرهم يرى فى الدِّرهم ما يرى فيه[٢] صاحبُ السِّلعة ما اتَّفق بينهما شراءٌ أَبداً ، ولا بيعٌ أَبداً . وفى هذا جميع المَفْسَدة ، وغايةُ الهلكة .

فسبحان الذى حبَّب إلينا ما فى أَيدى غيرنا ، وحبَّبَ إلى غيرنا ما فى أَيدينا ، ليقع التبَّايعُ . وإذا وقع التَّبايُع وقع التَّرابُح ، وإذا وقع الترابُح وقع التَّعايُش .

ويدلُّك أَيضاً على اختلاف طبائعهم وأَسبابهم : أَنَّك تجد الجماعة وبين أَيديهم الفاكهةُ والرُّطَب ، فلا تجِدُ يدين تلتقيان[٣] على رُطَبةٍ بعينها ، وكلُّ واحد من الجميع يرى ما حَواهُ الطَّبَق ، غير أَنَّ شهوته وقعَتْ على واحدةٍ غيرِ التى آثَرَها صاحبه[٤] . ولربَّما سبَق الرجلُ إلى الواحدة ، وقد كان صاحبُه يريدها فى نفسه ، غير أَنَّ ذلك لا يكون إلَّا فى الفَرْط ، ولو كانت[٥] شهواتهم ودواعيهم تتَّفق على واحدةٍ بعينها لكان فى ذلك التَّمانُع والتجاذب[٦] ، والمبادرةُ وسوءُ المخالطة والمؤاكلة . وكذلك هو فى شهوة النِّساءِ والإماء ، والمراكِب والكُسَى . وهذا كثيرٌ ،والعلم به قليل. وبأَقلَّ ممَّا قلنا[٧] يعرف العاقلُ صوابَ مذهبنا . واللهتعالى نسأَلُالتوفيق .

(١) ب : « ولم يشر » ، صوابه فى م ، ط .
(٢) فيه ، ساقطة من ب . وفى م : « فيها » ، تحريف .
(٣) ب فقط : « فلا نجد » بالنون . وفى ب ، م : « يلتقيان » ، واليد أنثى .
(٤) ب ، م : « صاحبها » .
(٥) ب فقط : « كان » .
(٦) م فقط : « التحازب » .
(٧) ب : « وبأقل ماقلنا » .

وهو الذى[1] خالَفَ بين طبائعهم وأسبابهم ، حتَّى لا يُتَّفَقَ على تخرُّص خبرٍ واحد[2] ، لأنَّ فى اتفاق طبائعهم وأسبابهم فى جهة الإخبار فسادَ أُمورهم ، وقلة فوائدهم واعتبارهم ، وفى فساد أَخبارهم فسادُ متاجرِهم والعلمِ بما غاب عن أَبصارهم ، وبُطلانُ المعرفة بأَنبيائهم ورسلهم عليهم السلام ، ووَعْدِهم ووَعيدهم ، وأَمْرِهم ونهيهم وزَجْرِهم ، ورغبتهم ، وحُدودهم ، وقصاصهم الذى هو حياتُهم ، والذى يعدِّل طبائعهم ، ويسوِّى أَخلاقهم ، ويقوِّى أَسبابهم[3] ، والذى به يتمانعون من تواثب السِّباع[4] ، وقلَّة احتراس البهائم ، وإضاعة الأَعمار . وبه تكثُر خواطرُهم وتفكيرهم ، وتحسُن معرفتُهم[5] .

ولم نقلْ إنَّ العددَ الكثير[6] لا يجتمعون على الخبرِ الباطل ، كالتَّكذيب والتَّصديق ، ونحن قد نجد اليهودَ والنَّصارى ، والمجوس والزنادقة ، والدُّهرية وعُبَّاد البِددة[7] يكذِّبون النبى صلى الله عليه وسلم ، وينكرون آياتِه وأعلامَه ، ويقولون : لم يأْت بشىء ، ولا بانَ بشىء . وإنَّما قلنا : إنَّ العدد الكثير[8] لا يتفقون على مثل إخبارهم أَنَّ محمَّد بنَ عبد الله بن عبد المطلب ، التِّهامىَّ الأَبطحىَّ عليه السلام خرج بمكة ، ودعا إلى كذا ، وأَمرَ بكذا ، ونَهى عن كذا ، وأَباح كذا ،

(١) ب ، م : « والذى » .
(٢) انظر ما سبق فى ص ٢٤١ ، ٢٤٨
(٣) ب ، م : « ويقوم أسبابهم » .
(٤) ب ، م : « تواثر » ، صوابه فى ط .
(٥) ب ، ط : « ويحسن معرفتهم » .
(٦) ب ، م : « ولم يقل إن العدد كثير » ، تحريف مافى ط .
(٧) البددة : جمع بد ، بالضم ، وهو الصنم ، معرب بت ، ويجمع أيضاً على أبداد . وفى ب ، م : « البدرة » ، وفى ط : « المبدرة » ، صوابهما ما أثبت .
(٨) ب ، م : « كثير » ، صوابه فى ط .

وجاءَ بهذا الكتاب الذى نقرؤه ، فوجب العملُ بما فيه ، وأَنَّه تحدَّى البلغاءَ[١] والخطباءَ والشُّعراءَ، بنظمه وتأْليفه، فى المواضع الكثيرة ، والمحافل العظيمة . فلم يَرُمْ ذلك أَحدٌ ولا تكلَّفه ، ولا أَتى ببعضِه ولا شبيهٍ منه ، ولا ادَّعى أَنَّه قد فعل ، فيكون ذلك الخبرُ باطلًا .

وليس قولُ جَمْعهم إنَّه كان كاذباً[٢] معارضةً لهذا الخبر ، إلَّا أَن يُسمُّوا الإِنكار معارضة . وإنَّما المعارضة مثلُ الموازَنَة والمُكايَلة ، فمتى قابلونا بأَخبارٍ فى وزن أَخبارنا ومَخرجِها ومَجيئها ، فقد عارضونا ووازنونا وقابلونا ، وقد تكافينا[٣] وتدافعنا . فأَمَّا الإِنكار فليس بحجَّة ، كما أَنَّ الإِقرار ليس بحجَّة ، ولا تصديقُنا النبيَّ صلى الله عليه وسلم حُجَّةً على غيرنا ، ولا تكذيبُ غيرنا له حجَّةً علينا ، وإنَّما الحُجَّة فى المجيءِ الذى لا يمكن فى الباطل مثله .

فإنْ قلتَ : وأَىُّ مجيءٍ أَثبَتَ خبر النَّصارى عن عيسى بنِ مريمَ عليه السلام ؟ وذلك أَنَّك لو سأَلتَ النَّصارى مجتمعين ومتفرِّقين لخبَّروك عن أَسلافهم أَنَّ عيسى قد قال : إنِّى إلَه .

قلنا : قد علمنا أَنَّ نصارى عصرِنا لم يكذبوا على القرن الذى كان قَبْلَهم ، والذين كانوا يَلُونهم . ولكنَّ الدليل على أَنَّ أَصلَ خبرِهم ليس كفرعه ، أَنَّ عيسى عليه السلام لو قال : إنِّى إله – لما أَعطاه الله تعالى إحياءَ الموتى ، والمشْىَ على الماءِ . على أَنَّ فى عيسى عليه السلام[٤] دلالةً فى نفسه ، أَنَّه ليس بإلَه ، وأَنَّه عبدٌ مدبَّر ، ومقهور ميسَّر ، وليس

---

(١) ب : « تجد » م : « تحد » صوابهما فى ط .
(٢) ب : « أنه كذا كان كاذباً » م : « أنه كان كاذبة » ، صوابهما فى ط .
(٣) ب : « تكافأنا » بالهمز .
(٤) ب فقط : « على أن عيسى عليه السلام » .

خبرُهم هذا إلَّا كإخبار النصارى عن آبائهم والقرنِ الذى يليهم أَنَّ بُولس[١] قد كانَ[٢] جاءَ بالآياتِ والعلامات. وكإخبار المَنانيَّة[٣] عن القرن الذى كان يليهم منه[٤] أَنَّ مانِى قد كان جاءهم بالآيات والعلامات . وكإخبار المجوس عن آبائهم الذين كانوا يلونهم أَنَّ زَرادُشت قد جاءهم بالآيات والعلامات . وقد علمنا أَنَّ هؤلاءِ النَّصارى لم يكذبوا على القَرْن الذى كان يليهم ، ولا الزَّنادقة ولا المجوس . ولكن الدليل على أَنَّ أَصل خبرهم ليس كفرعه[٥] أَنَّ[٦] الله جلّ وعز لا يُعطى العلاماتِ من لا يَعْرِفُه ، لأَنَّ بولس إنْ كان عنده أَنَّ عيسى عليه السلام إلّه فهو لا يعرف الله تعالى ، بل لا يعرف الرُّبوبيَّة من العبودية ، والبشريَّة من الإلهية .

٢٩ — فصل منــه

وللنصارى خاصَّةً رياء عجيب[٧] ، وظاهرُ زُهد ، والناس أَبطأُ شىءٍ عن التصفُّح ، وأَسرع شىءٍ إلى تقليد صاحب السِّنِّ والسَّمت ، وظاهر العمل أَدعَى لهم من العِلْم .

---

(١) بولس : أحد الحواريين ، وقد قام نيرون ملك الروم بقتله هو وبطرس بمدينة رومية وصلبهما منكسين ، وذلك بعد وفاة المسيح باثنتين وعشرين سنة ، وذلك بعد ثلاث عشرة سنة من ملكه . ابن الأثير ١ : ٣٢٥ والتنبيه والإشراف ١٠٩ — ١١٠ . و فى م فقط : « يونس » تحريف .

(٢) كان ، ساقطة من ب ، م .

(٣) المنانية ، والمانية : أتباع مانى المتنبئ الذى زعم أنه الفارقليط الذى بشر به عيسى عليه السلام ، واستخرج مذهبه من المجوسية والنصرانية . وانظر ماكتبت من تحقيق فى حواشى الحيوان ٤ : ١ . وفى ط : « المانوية » .

(٤) أى من زمن مانى . وفى ب ، م : « منهم .

(٥) أن ، ساقطة من ب ، ط .

(٦) ط فقط : « لأن » .

(٧) م : « رئاء » ، وهى لغة قرآنية .

٣٠ – فصل منه على ذكرهم

وكلُّ قومٍ بنَوْا دينَهم على حبِّ الأَشكال [١]، وشبْه الرِّجال [٢]، يَشتدُّ وجدُهم به [٣] وحبُّهم له ، حتَّى ينقلبَ [٤] الحبُّ عِشقاً ، والوجدُ صبابةً ، للمشاكلة التى بين الطبائع ، والمناسبة التى بين النفوس .

وعلى قدر ذلك يكون البُغْض والحقد ، لأَنَّ النَّصارى حين جعلوا ربَّهم إِنساناً مثلهم بَخَعتْ نفوسُهم بالهَيْبَةِ له [٥] لتوهُّمهم الرُّبوبيَّة ، وأَسمحت بالمودَّة لتوهُّمهم البَشَريَّة ، فلذلك قَدَرُوا من العبادة على ما لم يقدِرْ عليه مَنْ سواهم [٦] . وبمثل هذا السَّبَب صارت المشبِّهة منَّا أَعبَدَ ممَّن ينفى التَّشبيه ، حتَّى ربَّما رأَيتَه يتنفَّس من الشوق إِليه ، ويَشْهق [٧] عندَ ذكر الزيارة ، ويبكى عند ذكر الرُّؤية ، ويُغْشَى عليه عند ذكر رَفْع الحُجُب . وما ظنُّك بشوقِ مَنْ طَمِع فى مجالسة ربِّه عزَّ وجلَّ ، ومحادثةِ خالقه عزّ ذكرُه .

ولقد غالت القومَ غُولٌ ، ودعاهم أَمرٌ ، فانظُرْ ما هو ؟ وإِنْ [٨] سأَلتنى عنه خبَّرتك : إِنَّما هو نتيجةُ أَحدِ أَمرين : إِمَّا تقليدُ الرِّجال ، وإِمَّا طلبُ تعظيمهم . ولذلك السَّببِ لم ترض اليهودُ من إِنكار حقِّه بتكذيبه ، حتَّى طلبَتْ قتلَه وصَلْبَه ، والمُثْلة به ، ثم لم ترضَ بذلك حتَّى زعمت

---

(١) ط : « بنوا على حب الأشكال » .

(٢) ب ، م : « وشيد الرجال » ط : « وشد الرحال » ، ولعل وجهه ما أثبت .

(٣) ب : « أشد وجدهم به » م : « اشتد وجدهم به » ، وأثبت مافى ط .

(٤) ب : « تقرب » م : « يقرب » ، صوابهما فى ط .

(٥) بخعت : خضعت وأقرت . وفى ب : « نجعت » تحريف . م ، ط : « بالهيته له » والإلهية : الربوبية . وأثبت مافى ب .

(٦) ب ، م : « من العبادة مالم يقدر عليه سواهم » .

(٧) ب ، م : « ويشهد » .

(٨) ب : « وإذا » .

أَنَّه لغير رِشْدة ، فلو كانت دون هذه المنزلةِ منزلةٌ لما انتهت اليهودُ دونَ بلوغها ، ولو كانت فوق ما قالت النَّصارى منزلةٌ لما انتهت دونَ غايتها .

وبذلك السَّبب صارت الرافضة أَشدَّ صبابةً وتحرُّقاً ، وأَفرطَ غضَباً ، وأَدوَمَ حِقداً . وأَحسَنَ تواصُلًا من غيرهم أَيضاً .

وربَّ خبرٍ قد كان فاشياً(١) فدخل عليه من العِلل ما منَعَه من الشُّهرة ، وربَّ خبرٍ ضعيف الأَصلِ ، واهنِ المخرج ، قد تهيَّأَ له من الأَسباب ما يُوجب الشُّهرة .

٣١ ــ فصل منـــه

واعلم أَنَّ لأَكثر الشِّعر ظَعْنا(٢) وحظوظاً ، كالبيت يحظَى ويسير ، حتَّى يحظى صاحبُه بحظِّه ، وغيرُه من الشِّعر أَجوَدُ منه . وكالمثَل يحظَى ويَسير ، وغيرُه من الأَمثال أَجوَد . وما ضاع من كلام النَّاسِ وضَلَّ أَكثرُ ممَّا حُفِظ وحُكى . واعتبر ذلك من نفسِكَ ، وصديقِك وجليسك .

وأَمر الأَسبابِ عجيب . ومن ذلك قَتْلُ علىّ بن أَبى طالب(٣) من السَّادة والقادة والحُماة ، ما عسى لو ذكرتُه لاستكبرتَه واستعظمْتَه ، فأَضرَب النَّاسُ عن ذكرهم ، وجَهلت العوامُّ مواضعَهم ، وأَخذوا فى ذكر عمرو بن عَبْدوُدّ(٤) فرفَعُوه فوق كلِّ فارس مشهور ، وقائدٍ مذكور .

---

(١) فاشياً : ذائعاً منتشراً . ب ، م : « ناسياً » صوابه فى ط .

(٢) فى الأصول : « طعناً » بالمهملة ، صوابه ما أثبت . والظعن : الارتحال والسير .

(٣) ب ، م : « وليس كل ذلك يعرف قبل على بن أبى طالب » ، تحريف .

(٤) عمرو بن عبد ود : أحد أشراف قريش . وقد ظهر أمره فى غزوة بدر الكبرى قاتل فيها فأثبتته الجراحة ، فلم يشهد يوم أحد ، فلما كان يوم الخندق خرج معلماً ليرى مكانه ، ودعا إلى المبارزة ، فنازله على بن أبى طالب وجاوله حتى قتله . وانظر السيرة ٤٣٦ ، ٦٧٧ ، ٦٩٩ . وفى ب ، م : « وأخذوا فى ذلك » . وود : صنم يقال بفتح الواو وضمها ، وفتحها أكثر فى اللغة وفى القراءات .

وقد قرأتُ على العلماء كِتاب الفجار[١] الأوّل ، والثانى ، والثالث . وأمر المطيِّبين[٢] والأَحلاف[٣] ، ومَقْتَل أَبى أُزَيهر[٤] ، ومجىء الفيل ، وكلِّ يوم جَمْعٍ كان لقريش ، فما سمعتُ لعمروٍ هذا فى شيءٍ من ذلك ذكراً.

فإنْ قلت : إنَّ نُبْل القاتل زيادة فى نُبْل المقتول ، فكلٌّ من قتله على ابن أَبى طالب رضوان الله عليه أنبلُ منه وأَحقُّ بالشهرة ، ولكن أَشعار ابنِ دَأْبٍ[٥] ، ومناقلةَ الصِّبيان فى الكُتَّاب هما اللّتان أَوْرثتاه[٦] ما تَرَى وتسمع .

---

(١) أيام الفجار معروفة فى أيام العرب أيام الجاهلية . وسميت فجاراً لأنها كانت فى الأشهر الحرم ، وكانت قبل مبعث النبى ، صلى الله عليه وسلم ، بست وعشرين سنة. وقال النبى صلى الله عليه وسلم : «كنت أنبل على أعمامى يوم الفجار وأنا ابن أربع عشرة سنة »أنبل . : أناولهم النبل،أى السهام . وانظر العقد ٥: ٢٥١ — ٢٥٧ . ب ، م : « الفخار » ، صوابه فى ط .

(٢) المطيبون : هم أسد ، وزهرة ، وتميم، عقدت معهم بنو عبد مناف حلفاً مؤكداً على ألا يتخاذلوا ، وأن يكونوا يداً واحدة على أخذ مافى يدى عبد الدار من الحجابة والرفادة واللواء والسقاية ، فأخرجت بنو عبد مناف جفنة مملوءة طيباً فوضعوها فى المسجد ، ثم غمس القوم أيديهم فيها جميعاً وتعاقدوا ، ثم مسحوا الكعبة بأيديهم توكيداً ، فسموا المطيبين . وكان أبو بكر من المطيبين .

(٣) الأحلاف،هم خمس قبائل من قريش: عبد الدار ، وجمح، وسهم، ومخزوم ، وعدى ابن كعب . تعاقدت معهم بنو عبد الدار حلفاً مؤكداً ألا يتخاذلوا ،فسموا الأحلاف. وكان عمر ابن الخطاب من الأحلاف . انظر اللسان (حلف)،وكذلك المحبر لابن حبيب ١٦٦ — ١٦٧ .

(٤) فى ب ، ط : « ومقتل أبى أزيهر » وفى م : « ومقبل بن أبى أزيهر » ، صوابهما ما أثبت . وانظر خبر مقبل أبى أزيهر الدوسى فى كتاب أسماء المغتالين من نوادر المخطوطات ٢ : ١٤٩ . والذى قتله هوهشام بن الوليد بن المغيرة .

(٥) اسمه عيسى بن يزيد بن بكر بن دأب ، كان خطيباً شاعراً ناسباً ، وكان يضع الحديث والشعر كأحاديث السمر . وكان يضع الحديث بالمدينة ، وابن شوكر يضع الحديث بالسند ، وفيهما يقول خلف الأحمر :

أحاديث ألفهـــا شوكر وأخرى مؤلفـــة لابن داب

وكان كثير الأدب ،عذب الألفاظ ، صاحب خطوة عند الهادى . روى عنه شبابة بن سوار ، ومحمد بن سلام الجمحى . تاريخ بغداد ٥٨٤٥ ولسان الميزان ٤ : ٤٠٨ . ط : « ابن ود »، تحريف .

(٦) ب : « ورثتا » م : « أورثتا » ، وأثبت مافى ط .

٣٢ ــ فصل منه فى أمر الأخبار

وإنَّما ذكرت هذا لتعلم أنَّ الخبر قد يكون أصلُه ضعيفاً ثم يعود قويًّا ، ويكون أَصلُه قويًّا فيعودُ ضعيفاً ، للذى يعتريه من الأَسباب ، ويَحُلُّ به من الأَعراض ، من لدُن مَخرجه وفُصُوله ، إلى أن يبلغ مدَّتَه(١) ، ومنتهى أَجلِه ، وغايةَ التَّدبيرِ فيه ، والمصلحةِ عليه .

فلمَّا كان هذا مخوفاً ، وكان غير مأْمونٍ على المتقادِم منه وضَعَ الله تعالى لنا على رأْس كلِّ فترةٍ علامة ، وعلى غاية كلِّ مدَّةٍ أمارة ، ليُعيدَ قوَّةَ الخبر ، ويجدِّد ما قد همَّ بالدُّروس ، بالأَنبياءِ والمرسلين(٢) عليهم السلام أَجمعين . لأَنَّ نوحاً عليه السلام هو الذى جدَّد الأَخبار التى كانت فى الدَّهر الذى بينه وبين آدم عليهما السلام ، حتَّى منَعها الخللَ ، وحماها النُّقصانَ بالشواهد الصادقة ، والأَمارات القائمة . وليس أَنَّ أَخبارهم وحججهم قد كانت دَرَست واختلَّت ، بل حين همَّت بذلك(٣) وَكادَت . بعثَهُ الله عزّ وجل بآياته لئلا تخلوَ الأَرض من حُججِهِ ، ولذلك سمَّوا آخر الدهر الفَتْرة . وبين الفَتْرةِ والقِطْعة فرق . فاعرفْ ذلك .

ثم بعث الله جلّ وعزّ إبراهيم عليه السلام على رأْس الفترة الثانية التى كانت بينه وبين دهر نوح ، وإنَّما جعلها(٤) الله تعالى أَطولَ فترةٍ كانت فى الأَرض ، لأَنَّ نوحاً كان لبث فى قومه يحتجُّ ويُخبر ، ويؤكِّد ويبيِّن ، أَلفَ سنةٍ إلَّاخمسين عاماً ، ولأَنَّ آخر آياته كانت أَعظم الآيات ، وهى الطُّوفان ، الذى أَغرقَ الله تعالى به(٥) جميعَ أَهل الأَرض

(١) ب : « تبلغ مدته » .
(٢) ط : « من أنباء المرسلين » .
(٣) كلمة « بل » من ط فقط .
(٤) ب ، م : « جعله » ، صوابه فى ط .
(٥) ب ، م : « التى غرق الله تعالى » فقط ، صوابه فى ط .

غيرَه وغير شيعته ، وإنَّما أفار الماءَ(١) من جوف تَنُّور ، ليكون أعجب للآية(٢) ، وأشهر للقِصَّة ، وأثبتَ للحُجَّة .

ثم ما زالت الأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين ، بعضُهم على إثْر بعضٍ فى الدَّهر الذى بين إبراهيم ، وبين عيسى عليهما السلام . فلتَرادف حُجَجهم ، وتظاهُر أعلامهم ، وكثرةِ أخبارهم ، واستفاضة أُمورهم ، ولشدَّة ما تأكَّد ذلك فى القلوب ، ورسَخَ فى النفوس ، وظَهَر على الألسنة ، لم يدخلها الخَطل والنَّقص(٣) والفسادُ ، فى الدَّهر الذى كان بين النبي عليه السلام وبين عيسى عليه السلام .

فحينَ همَّت بالضَّعف ، وكادت تنقص عن التَّمام(٤) ، وانتهت قوّتها ، بعثَ الله تعالى محمّداً صلى الله عليه وسلم ، فجدَّد أقاصيص آدم ونوحٍ ، وموسى وهارون ، وعيسى ويحيي ، عليهم السلام ، وأُموراً بين ذلك ، وهو الصادق ، بالشَّواهد الصادقة ، وأنَّ السَّاعة آتية(٥) ، وأنَّه ختم الرُّسل عليهم السَّلامُ به ، فعلمْنا عند ذلك أنَّ حجَّته ستتمُّ إلى مُدَّتها ، وبلوغِ أمرِ الله عزّ وجلّ فيها .

٣٣ — فصل

ثم رجع الكلام إلى القول فى الأخبار ، فأقول :

إنَّ الناس مُوكَّلون بحكايةِ كلِّ عجيب ، وميسَّرون للإخبار عن

(١) يقال فار الشيء : جاش ، وأفرته وفرته أيضاً بالتعدية فيهما . وأنشد ابن الأعرابى :

وكانوا قعوداً حولها يرقبونها وكانت فتاة الحى ممن يفــــيرهــــا

ويروى : « يفورها » ويروى : « يغيرها» . ط فقط : « فار الماء » .

(٢) ب : « وليكون » بزيادة واو .

(٣) ب : « لم يدخلها النقص » فقط . م : « لم يدخلها الخلل والنقص » ، وأثبت ما فى ط .

(٤) ب : « وكانت تنقص عن التمام » ، صوابه فى م ، ط .

(٥) ب ، م : « أن الساعة آتية » .

كلِّ عظيم ، وليسوا[١] للحسَن أحكَى منهم للقبيح ، ولا لما يَنفع أحكَى منهم لما يضرّ ، وعلى قدر كِبَر الشّيء تكون حكايتهم له واستماعُهم[٢] .

ألا ترى أنَّ رجلًا من الخلفاءِ لو ضربَ عُنقَ رجلٍ من العظماءِ لما أمسَى وفى عسكره وبَلْدته جاهلٌ ولا عالمٌ إلَّا وقد استقرَّ ذلك عنده وثبت فى قلبه[٣] ، لأنَّ الناس بين حاسدٍ فهو يحكى ذلك الذى دَخَل عليه من الثُّكْل وقلَّة العدد ، وبين واجدٍ[٤] يعجِّب الناس ، وبين واعظٍ مُعتبر ، وبين قومٍ شأْنُهم الأراجيفُ بالفاسد والصَّالح . ولو كانَ ضربَ عُنقَه فى يومِ عيدٍ ، أو حَلْبةٍ[٥] ، أو استمطارٍ ، أو موسم ، لكان أشدَّ لاستفاضته ، وأسرعَ لظُهوره .

ولو جاز أن يكتم النَّاسُ هذا وشبهه على الإيثار للكتمان ، وعلى جهة النِّسيان ، لكُنَّا لا ندرى : لعلَّه قد كان فى زمنِ صِفِّينَ والجملِ والنَّهروانِ حَربٌ مثلها أو أشدُّ منها ، ولكن النَّاسَ آثروا الكتمان ، واتَّفقوا على النسيان .

فإذا كان قتلُ الملكِ الرّجلَ من العُظماءِ بهذه المنزلة من قلوب الأعداءِ ، ومن قلوب الحكماءِ والغَوْغاء ، فما ظنُّك بمن لو أبصروا رجلًا قد أحياه بعد أن ضرب عنقَه ، وأبان رأْسَه من جسده ، أليس كان يكون تعجُّبهم[٦] من إحيائه أشدَّ من تعجُّبهم من قتله ، وكان يكون إخبارهم مَن خلَّفوا فى منازلهم ومَنْ وَرَدَ عليهم عن القَتْل ليكون سبباً للإخبار عن الإحياء ، إذْ كان الأوّلُ صغيراً فى جَنْب الثّانى .

---

(١) ب ، م : « وليس هم » .
(٢) ب : « يكون » بالياء . وكلمة « له » من ط فقط .
(٣) ب ، م : « ذلك عنده وقلبيه » تحريف .
(٤) ب ، م : « واحد » ، صوابه فى ط .
(٥) يوم الحلبة : يوم سباق الخيل . ب ، م : « خلية » ، صوابه فى ط .
(٦) ط فقط : « أليس يكون يكون تعجبهم » .

فهذا يدلُّ على أَنَّ أَعلامَ الرُّسل عليهم السلام وآياتهم أَحقُّ بالظُّهور والشهرة ، والقهرِ للقلوب والأَسماع ، من مخارجهم وشرائعهم . بل قد نعلم أَنَّ موسى عليه السلام لم يُذكَر ولم يُشْهَر إلَّا لأَعاجيبه ولآياته . وكذلك عيسى عليه السلام ، ولولا ذلك لما كانا إلَّا كغيرهما ممن لا يُشْعَر بموته ولا مولده .

وكيف تتقدم المعرفة بهما المعرفة بأَعلامهما[(١)] وأَعاجيبهما ، وأَنت لم تسمع بذكرهما قطُّ ، دون ما ذكر من أَعلامهما .

فإذا كان شأْنُ النَّاسِ الإِخبارَ عن كلِّ عجيبٍ ، وحكايةَ كلِّ عظيمٍ ، والإِطرافَ بكلِّ طريف ، وإِيرادَ كلِّ غريبٍ من أُمور دنياهم ، فما لا يمتنع[(٢)] فى طبائعهم ، ولَا يَخرُج من قوى الخليقة فى البطش والحيلة ، أَحقُّ بالإِخبار والإِذاعة ، وبالإِظهار والإِفاضة ، هذا على أَن يُترِكَ الطِّباعُ وما يُولَدُ عليه[(٣)] ، والنُّفوسُ وما تُنتج[(٤)] ، والعِللُ وما يسخَّر . فكيف إنْ كان الله عز وجل قد خَصّ أَعلامَ أَنبيائه وآياتِ رسله عليهم السلام من تهييج الناس على الإِخبار عنها[(٥)] ، ومن تسخير الأَسماع لحفظها ، بخاصّة لم يجعلْها لغيرها[(٦)] .

٣٤ ــ فصل منه

فإن قال قائل : إنَّ الحجَّةَ لا تكون حجَّة حتَّى تعجز الخليقة[(٧)] ،

(١) ب ، م : « وكيف يتقدم » وبعدها فى ب فقط : « المعرفة » . وتتمة الكلام من م ، ط .

(٢) ب ، م : « ولاما يمتنع » ، صوابه فى ط .

(٣) الطباع : الطبع ، ويكون أيضاً جمعاً للطبع ، كما قال الأزهرى . وفى ط : « وما تولد عليه » ، فلها وجهها .

(٤) ب ، م : « وما ينتج » .

(٥) ب ، م : « عن الإخبار عنها » ، صوابه فى ط .

(٦) ب ، م : « خاصة لم يجعلها لغيرها » .

(٧) ب ، م : « حتى يعجز الخليقة » .

وتخرج[١] من حدِّ الطاقة ، كإحياءِ الموتى ، والمشْى على الماءِ ، وكفَلْق البحر ، وكإطعام الثِّمار فى غير أَوان الثّمار ، وكإنطاق السِّباع ، وإشباع الكثير من القليل ، وكلِّ ما كان جسمًا مُخترعاً ، وجرماً مُبتدعاً . وكالذى لا يجوز أن يتولّاه إلّا الخالق ، ولا يقدر عليه إلّا الله عزّ ذكره .

فأَمّا الأَخبار التى هى أفعالُ العباد ، وهم تَولّوها ، وبهم كانت وبقولهم حدثَتْ ، فلا يجوز أن يكون حجّة ، إذْ كان[٢] لا حُجَّةَ إلّا مالا يقدر عليه الخليقة ، وما لا يُتوهَّم من جميع البريَّة .

قلنا : إنَّا لم نَزْعُم أَنَّ الأَخبار حُجّةٌ فيحتجُّون علينا بها ، وإنَّما زعمنا أَنَّ مجيئها حجّةٌ ، والمجىء ليس هو أَمرٌ يتكلَّفه الناس ويختارونه على غيره ، ولو كان كذلك لكانوا متى أَرادوه فعلوه وتهيَّئوا له ، ولفعلوه فى الباطل[٣] كما يجىءُ لهم فى الحقِّ . والمجىءُ أَيضاً ليس هو فعلًا قائماً فيستطيعوهُ أَو يعجزوا عنه[٤] ، وإنّما هو الإنسان ، يعلم أَنّه إذا لقى البَصْريين فأَخبروه أَنَّهم قد عاينوا بمكة شيئاً ، ثم لقىَ الكوفيِّين فأَخبروه بمثل ذلك ، أَنَّهم قد صدَقوا[٥] . إذْ كان[٦] مثلهُم لا يتواطأ[٧] على مثل خبرِهم على جَهْلهم بالغيب ، وعلى اختلاف طبائعهم وهممهم وأَسبابهم .

فليس بين هذا وبين إحياءِ الموتى والمشْى على الماء فرق ، إذْ كان الناس لا يقدرون عليه ، ولا يطمعون فيه ، والمجىء إنَّما هو معنًى

---

(١) ب ، م : « ويخرج » .
(٢) ب فقط : « إذا كان » ، تحريف .
(٣) هذا مافى ط . وفى م : « وتهيئوا لفعله فى الباطل » ، وفى ب : « وتهيأ ولفعلوه فى الباطل » .
(٤) ب ، م : « فيستطيعونه أو يعجزون له عنه » .
(٥) فى ب : « فأخبروه بمثل ذلكقد صدقوا » . وتتمة الكلام من م ، ط .
(٦) ب فقط : « إذا كان » ، تحريف .
(٧) ب ، م : « يتوطأ » ، تحريف .

معقول ، وشيءٌ موهوم . إذْ كان(١) كيف يكون ومعـلومٌ أنَّ الناس لا يمكنهم أن يقدِروا ، ولا يستطيعون فعلَه . وإنَّما مدارُ أمرِ الحُجَّة على عجز الخليقة . فمتى وجَدْتَ أمراً ووجدت الخليقة عاجزةً عنه(٢) فهى حجة . ثمَّ لا عليك جوهراً كان أو عَرضاً ، أو موجوداً أو متوهَّماً معقولًا . ألا ترى أنَّ فَلْق البحرِ ليس هو من جنس اختراع الثمار ، لأنَّ الفلق هو انفراج أجزاء ، والثمار أجرامٌ حادثة .

وكذلك لو ادَّعى رجلٌ أنَّ الله عزّ وجلّ أرسله وجعل حجّتَه علينا(٣) الإخبارَ بما أكلْنا وادّخَرنا وأضْمرنا ، لكان قد احتجَّ علينا .

فإن قلتم(٤) : إنَّ المنجِّمين ربَّما أخبروا بالضمير ، وبالأمر المستور ، وببعضِ ما يكون .

قلنا : أمَّا واحدةً(٥) فإنَّ خطأَ المنجِّمين كثير ، وصوابهم قليل ، بل هو أقلُّ من القليل . وأنتم لا تقدرون أن تقفونا(٦) من أخبار المرسلين عليهم السلام فى كثير أخبارهم على خطاءٍ واحد(٧) ، والذى سهَّل قليل المنجِّمين طَرَافةُ ذلك منهم(٨) ، لأنَّهم لو قالوا فأخطئوا أبداً لما كان

---

(١) م ، ط : « إذا كان » .

(٢) ب : « غيره عجزه » م : « غير عاجزة » ، صوابهما فى ط .

(٣) ب : « فجعله حجة علينا » تحريف . وفى ط : « فجعل حجته علينا » ، وأثبت مافى ب .

(٤) ب : « فلم قلتم » تحريف . ط : « فإن قلت » ، وأثبت مافى م .

(٥) بدله فى ط : « هناك فرق » .

(٦) ط : « أن تقفون » صوابه فى ب ، م .

(٧) ب : « فى كثرة أخبارهم » . ب ، ط : « على خطأ واحد » . والجاحظ يميل كثيراً إلى استعمال « الخطاء » بمعنى الخطأ ، وهوماورد هنا فى نسخة م . انظر الحيوان ١ : ٢١٣ / ٣ : ٢٥٨ ، ٥٠٠ والبيان ٤ : ١٦ ، ٦٧ .

(٨) الطرافة من الطريف ، وهو الشىء الغريب المستحدث . وفى جميع النسخ : « ظرافة » بالظاء المعجمة ، والظرافة : الكيس والحذق ، ولاوجه لها هنا .

عَجَبا ، لأنَّه ليس بعَجَبٍ أن يكون الناس لا يعلمون ما يكون قبل أن يكون ، ومن أعجبِ العجب أنْ يوافق قولُهم بعضَ ما يكون .

وقد نجد المنجِّمين يختلفون فى القضيَّة الواحدة ، ويُخطئون فى أكثرِها . وقد نجد الرَّسولَ يُخبرهم عمَّا يأْكلون ويَشربون ويدَّخرون ويُضْمرون ، فى الأُمور الكثيرة المعانى ، والمختلفةِ فى الوجوه ، حتَّى لا يخطئ فى شىءٍ من ذلك . وليس فى الأَرض منجِّم ذكر شيئاً[١] أَو وافَق ضميراً إلَّا وأنت واجدٌ بعضَ مَن يزجُر[٢] قد يجىءُ بمثله وأكثر منــه .

فإن قلت : إنَّ الناس يَكْذِبون فى الإخبار عن الأَعراب والكُهَّان من كلِّ جيل ؟

قلنا : فهم فى إخبارهم عن المنجِّمين أَكْذَب .

وبعدُ ، فالناس غير مستعظمين لكثرةِ كذِب المنجِّمين وخطاياهم وخُدَعهم ، والناس يستعظمون[٣] اليسيرَ من المرسَلين عليهم السلام . وكلَّما كان الرجلُ فى عينك أَعظَمَ ، وكان عن الكذب أَزجَر ، كان كذبه عندك أَعظَمَ . وإنَّما المنجِّم عند العوامِّ كالطبيب الذى إنَّ قَتَلَ المريضَ علاجُه كان عندهم أَنَّ القضاءَ هو الذى قتله[٤] ، وإنْ برأَ كان هو أبرأَه . على أَنَّ صوابهم أَكثر ، ودليلَهم أَظهر .

وقد صار النَّاسُ لا يقتصرون للمنجِّمين على قدر ما يسمعونَ منهم ، دون أَنْ يولِّدوا لهم ، ويضعوا الأَعاجيب عَنْ أَلسنتهم .

---

(١) ب ، م : « قال شيئاً » .
(٢) الزجر : ضرب من الكهانة . وفى جميع النسخ : « مايزجر » . ووجهه ما أثبت .
(٣) فى جميع النسخ : « يستقطعون » ، صوابه ما أثبت .
(٤) ب ، م : « إن قبل المريض » ، و « هو الذى قبله » صوابهما فى ط .

وكلُّ ملحدٍ فى الأَرض للرسول طاعنٍ عليه ، عائبٍ له ، يرى أَن يصدِّق عليه كلَّ كذَّابٍ يريد ذمَّه ، وأَن يكذِّب كلَّ صادقٍ يريد مدحه .

وبعدُ ، فلو كان خبرُ المنجمين(١) فى الصواب كخبر الأَنبياء والمرسلين عليهم السلام ، الذى هو حُجَّةٌ ، لما كان خبرُ المنجِّمين حجّة .

فإن قلت : ولِم ذاك ؟

قلتُ : لأَنَّ من كثُر صوابُه على غير استدلالٍ ومقايَسة ، وعلى(٢) غير حسابٍ وتجربة ، أَو على نظرٍ ومُعايَنة لم يكن الأَمر مِنْ قبل الوحى(٣) ؛ لأَنَّك لو قلت قصيدةً فى نفسك فحدَّثَك بها رجل ، وأَنت تعلم أَنَّه ليس بمنجِّم ، وأَنشَدَكها كلَّها ، لعلمت أَنَّ ذلك لا يكون إلَّا بوحى .

ومِثل ذلك رجلٌ اشتدَّ وَجَعُ عينِه فعالجه طبيبٌ فبرأَ(٤) ، فلو جعل الطَّبيبُ ذلك حُجّةً على نُبُوَّته لوجب علينا تكذيبُه ، ولو قال رجلٌ من غير أَن يمسَّه أَو يدنوَ إليه : اللَّهمّ إن كنتُ صادقاً عليك فاشفِه السَّاعةَ ، فبرأَ(٥) من ساعتِه لعِلْمنا أَنَّه صادق .

فإن قالوا : وما علَّمنا أَنَّ محمداً عليه السّلامُ لم يكن منجِّماً ؟

قلنا : إنَّ عِلْمَنا بذلك كعِلمنا بأَنَّ العبَّاسَ وحمزةَ وعليًّا وأَبا بكرٍ وعمر ، رضوانُ الله عليهم أَجمعين ، لم يكونوا منجِّمين ، ولا أَطبَّاءَ متكهِّنين . وكيف يجوز أَن يصير إنسانٌ عالماً بالنُّجوم من غير أَن يختلف

---

(١) ب فقط : « غير المنجمين » ، تحريف .
(٢) ب ، م : « على » بسقوط الواو .
(٣) ب ، م . : « لم يكن الأمر قبل الوحى » ، وإكماله من ط .
(٤) ط : « فبرئ » ، وهما لغتان : برأ يبرأ ويبرؤ ، وبرئ يبرأ ، أى شفى من مرضه.
(٥) م ، ط : « فبرئ » .

إلى المنجِّمين ، أَو يختلفوا إليه ، أَو يكونَ علمُ النُّجوم فاشياً فى أَهل بلاده ، أَو يكونَ فى أَهله واحدٌ معروف به . ولو بلغَ إنسانٌ فى علم النجوم ، وليست معه عِلَّةٌ من هذه العلل ، وكان ذلك يخفى ، لكان ذلك كبعض الآياتِ والعلامات .

ومتى رأَينا حاذقاً بالكلام ، أَو بالطِّبِّ ، أَو بالحساب ، أَو بالغناءِ ، أَو بالنُّجوم ، أَو بالعَرُوض ، خَفِىَ على النَّاس موضعُه وسببُه ؟ !

وجميعُ ما ذكرنا ، فعنايةُ الناس به[١] وعداوتُهم ، وشُهرتُه فى نفسه ، دون محمد صلى الله عليه وسلم .

وهل نصب أَحدٌ قطُّ لأَحدٍ إلَّا بدون ما نصَبَ له رهطُه[٢] ، وأَدانى أَهله[٣] ، ومن معه فى بَيته ورَبْعه .

وما أَعرِف ـ يرحمك الله ـ المعاندَ والمسترشِد والمصدِّق والمكذِّب ، ينكر أَنَّ محمداً صلى الله عليه وسلم لم يكن منجِّماً ولا طبيباً . وإذا قال الجاهل : إنَّه قد كان يعلم الخطَّ فخفِىَ له ذلك ، وتعلَّم الأَسبابَ والقضاءَ فى النجوم فخفِىَ له ذلك ، وتعلَّم البيان وقدرَ منه[٤] على ما يعجز أَمثالُه عنه وخفِىَ ذلك ، أَليس مع قوله ما يعلمُ خلافَه ، يعلم أَنَّه قد سلَّم له أُعجوبةً كأُعجوبةِ إبراءِ الأَكمهِ والأَبرص ، والمشىِ على الماءِ ، إذْ كان ذلك لا يجوز ، ولا يمكنُ فى الطبائِع والعقل والتَّجرِبة .

وافهمْ يرحمُك الله ما أَنا واصفُه لك : هل يجد التَّارك لتصديقهِ

---

(١) ب ، م : « عناية الناس به » .
(٢) نصب له : أظهر له العداء . ط : « وهل نسب أحد قط لأحد إلا دون مانسبه له رهطه » ، تحريف . وبعد كلمة « رهطه » فى كل من ب ، م وردت لفظة « نعمة » مقحمة .
(٣) الأدانى : جمع أدنى ، وهو الأقرب . ب ، م : « وأرانى » ، صوابه فى ط .
(٤) ب ، م : « وتعلم البيان على قدر منه » ، صوابه فى ط .

أَنَّه لا يدرى بزعمه ، لعلَّه كان أَعلمَ الخلق بالنُّجوم ، ناظراً لنفسه ، غير معاندٍ لحجَّة عقله . وهو لم يجد أَحداً قطُّ بَرَع فى صناعةٍ واحدة فخفِىَ على الناس موضعُه بكلِّ ما حكينا وفسَّرنا .

وأَنت كيف تعلم أَنَّه ليس فى إخوانك مَن ليس بمنجِّم ، وأَنَّ فيهم من ليس بطبيب ، إلَّا بمثلِ مايَعرِفُ به رهطُ النبى صلى الله عليه وآله منه .

وكيف لم يشتهر ذلك ، ولم لم يحتجَّ به عليه ؟ ولقد بلغ من إسرافهم فى شتمه ، وإفراطهم عليه ، أَنْ نافَقُوا وأَحالوا ، لأَنَّهم كانوا يقولون له : أَنت ساحِرٌ ، وأَنت مجنون ! وإنَّما يقال للرجل : ساحر ، لخلابته وحسن بيانه ، ولُطف مكايده ، وجودة مداراته وتحبُّبه . ويقال : مجنونٌ ، لضدِّ ذلك كله .

٣٥ — فصل منه

وليس ينتفع الناسُ بالكلام فى الأَخبار إلَّا مع التَّصادُق ، ولا تصادقَ إلَّا مع كثرة السماع ، والعلمِ بالأُصول ؛ لأَنَّ رجلًا لو نازع فى الأَخبار ، وفى الوعد والوعيد ، والخاصّ والعامّ ، والناسخ والمنسوخ ، والفريضة والنَّافلة ، والسُّنَّة والشَّريعة ، والاجتماع والفُرقة ، ثم حَسُنت نيّتُه ، وناصَحَ عن نفسه(١) ، لما عرف حقائق باطلٍ دون أَن يكون قد عرف الوجوه ، وسمع الجُمَلَ(٢) ، وعَرَف الموازنة ، وما كان فى الطبائع ، وما يمتنع فيها . وكيف أَيضاً يقول فى التأْويل مَنْ لم يسمع بالتنزيل ؟ وكيف يعرف صِدْقَ الخبرِ من لم يعرف سبب الصدق(٣) ؟

(١) فى اللسان (نضح) : « ويقال هو يناضح عن قومه وينافح عنهم ، أى يذب عنهم » . وفى جميع النسخ : « وناصح عن نفسه » ، صوابه ما أثبت .
(٢) ب : « وسمل الجمل » ، صوابه فى م ، ط .
(٣) م فقط : « سبب الخبر » .

واعلم أنَّ من عوَّد قلبَه التشكُّكَ(١) اعتراه الضعف ، والنَّفس عَرُوف(٢) ، فما عوّدتَها من شيءٍ جَرَتْ عليه .

والمتحَيِّرُ(٣) إلى تقوية قلبِه وردِّ قوَّته عليه وإفهامه موضعَ رأيه ، وتوقيفِه(٤) على الأمر الذى أثقلَ صَدره(٥) ، أحوَجُ منه إلى المنازعة فى فرق ما بين المجيءِ الذى يكذَّب مثلُه ، والمجيء الذى لا يكذَّب مثلُه .

وسنتكلَّف من علاج دائِه ، وترتيب إفهامه إنْ أعانَ على نفسه ، بما لا يُبْقِي سبباً للشك ، ولا عِلَّةً للضَّعف . والله تعالى المعينُ على ذلك ، والمحمود عليه .

٣٦ ــ فصل منــه

ومتى سمِعنا نَبِيَّ الله عليه السلام اتَّكل على عدالته ، وعلى معرفة قومه بقديم طهارته ، وقلَّةِ كذبه ، دون أن جاءهم بالعلامات والبُرهانات؟

ولعمرى لو لم نجد(٦) الحافظ يَنسى ، والصَّادقَ يَكذِب ، والمؤْمنَ يبدِّل ، لقد كان ما ذهبوا إليه وجهاً .

٣٧ ــ فصل منه فى ذكر دلائل النبى عليه الصلاة والسلام

وبابٌ آخر يُعرف به صدقُه ، وهو إخباره عمَّا يكون ، وإخباره عن

---

(١) ب : « التشكلا » ، صوابه فى م ، ط .
(٢) ب ، ط : « عزوف » ، صوابها فى م .
(٣) فى جميع النسخ : « والمتخير » بالخاء المعجمة ، وإنما يراد هنا المتحير المتشكك ، فالوجه ما أثبت .
(٤) فى جميع النسخ : « وتوفيقه » ، تحريف ما أثبت .
(٥) ب : « انفل صدره » صواب هذه ما أثبت . وفى م ، ط : « أشغل صدره » ، وهى صحيحةأيضاً . لكن فى القاموس : « وأشغله لغة جيدة ، أوقليلة ، أو رديئة » .
(٦) ب ، م : « أن لو نجد » ، صوابه فى ط .

ضمائر الناس[(١)] ، وما يأكلون وما يدّخرون ، ولدعائه المستجاب الذى لا تأخيرَ فيه ، ولا خُلْف له . وذلك أنَّ النبى صلى الله عليه وسلم حين لقىَ من قريشٍ والعربِ ما لقىَ من شِدَّة أذاهُم له ، وتكذيبِهم إيَّاه ، واستعانتِهم عليه بالأموال والرِّجال ، دعا الله جلّ وعزَّ أنْ يُجدِبَ بلادهم ، وأن يُدخِلَ الفقر بيوتهم ، فقال صلَّى الله عليه وآله : « اللهمَّ سِنينَ كَسِنِى يوسف[(٢)] . اللهم اشدُدْ وَطْأتَك على مُضَر » .

فأمسَكَ الله عزّ وجل عنهم المطَرَ حتَّى ماتَ الشَّجر ، وذَهَب الثَّمر ، وقَلَّت المزارعُ ، وماتت المواشى ، وحتَّى اشتَوَوا القِدَّ والعِلهز[(٣)] .

فعند ذلك وفَد حاجبُ بن زُرارة على كسرى ، يشكو إليه الجَهْد والأَزْل[(٤)] ويستأذنه فى رعى السَّواد[(٥)] ، وهو حين ضمِنه عن قومِه ، وأرهنَه قوسه . فلمَّا أصاب مضَرَ خاصَّةً الجهدُ ، ونَهكهم الأَزْل ، وبلغت الحُجَّةُ مبلغَها ، وانتهت الموعظةُ منتهاها ، عادَ بفضله صلى الله عليه وسلم ، على الذى بدأهم به ، فسأل ربَّه الخِصْبَ وإدرار الغَيْث ، فأتاهم منه ماهَدَم بُيوتَهم ، ومَنعهم حوائجَهم ، فكلَّموه فى ذلك فقال : « اللهم حَوالَيْنا ولا عَلَيْنَا » . فأمطر الله عزَّ وجلَّ ما حولهم ، وأمْسَكَ عنهم .

وكتب إلى كسرى يَدعُوه إلى نجاته وتخليصِه من كُفره ، فبدأ باسمِهِ على اسمِه ، فأَنِفَ من ذلك كسرى لشِقْوَته ، وأمَر بتمزيق الكتاب ،

(١) ب فقط : « ضمير الناس » .

(٢) ب فقط « كسنين يوسف » ، تحريف . وكانت سنو يوسف سبعاً شداداً ذات قحط وغلاء . والحديث من أفراد البخارى . انظر الحديث ٦١٩ من الألف المختارة .

(٣) القد ، بالكسر : سير يقد من جلد غير مدبوغ . والعلهز ، كزبرج : خليط من الدم وأوبار الإبل ، وقد يخلطون به القردان ، ثم يشوونه بالنار ويأكلونه .

(٤) الأزل ، بالفتح : شدة الزمان ، يقال هم فى أزل من العيش وأزل من السنة .

(٥) السواد : جماعة النخل والشجر ، لخضرته واسوداده . وسواد العراق : ما حوالى مدنه من القرى والرساتيق .

فلمَّا بلغه صلَّى الله عليه وسلم قال : « اللهمَّ مزِّقْ مُلْكَه كُلَّ مُمزَّقٍ » . فمزَّق الله جَلّ وعزّ ملكه ، وجَدَّ أَصله ، وقطع دابرَه ، لأَنَّ كلَّ ملكٍ فى الأَرض ، وإن كان قد أُخرِجَ من مُعظَم ملكِه ، فهو مقيمٌ على بقيّةٍ منه ، وذلك أَنَّ الإِسلام لم يترُكْ مَلِكاً بحيث تنالُه الحوافر والأَخفاف والأَقدام ، إلَّا أَزاله عنه ، وأَخرجه منه إلى عِقابٍ يعتصمُ بها[1] ، ومعاقلَ يأْوِى إليها ، أَو طرَدَه إلى خليجٍ منيع ، لا يقطعُه إلَّا السُّفُن[2] ، فهم من بين هاربٍ قد دخل فى وِجارٍ ، أَو اختفى[3] فى غَيْضة ، أَو مقيمٍ على فمِ شِعْبٍ ، ورأْس مَضيق ، قد سَخَتْ نفسُه عن كلِّ سهل ، وأَسلَمَ كلَّ مَرْجٍ أَو مُلكٍ لا قرارَ له ، وليس بذى مَدَر فيُؤتَى ، وإنَّما أَصحابه أَكرادٌ يَطلبون النُّجعة ، أَو كخوارج يَطلُبون الغِرّة[4] . فأَمَّا أَن يكون مَلِكٌ يُصْحِرُ لهم[5] ، ويقيم بإزائهم ، ويغاديهم الحرب ويُمسِّيهم ، ويساجلهم الظَّفرَ ويناهضهم ، كما كانت ملوكُ الطَّوائف ، وكالذى كان بين فارسَ والرُّوم — فلا ، وذلك لقوله تعالى : ﴿ هو الذى أَرسَلَ رَسولَهُ بالْهُدَى ودِينِ الحقِّ ليُظهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّه[6] ﴾ إلى قوله عزّ ذكره : ﴿ المشركون[7] ﴾ . فلم يرضَ أَن أَظهرَ دينَه حتَّى جعل أَهلَه الغالبين بالقُدْرة ، والظَّاهرين بالمَنعة ، والآخذين الإِتاوة .

---

(١) العقاب : جمع عقبة ، وهى طريق فى الجبل وعر .
(٢) ب : « لايمنعه » ، صوابه فى م ، ط .
(٣) فى جميع النسخ : « واختفى » ، والوجه ما أثبت .
(٤) ب فقط : « العزة » .
(٥) أصحر : برز وظهر . ب ، م : « يصخر » ط : « يصهر » ، صوابهما ما أثبت .
(٦) الآية ٣٣ من سورة التوبة و ٢٨ من سورة الفتح و ٩ من سورة الصف . وختام الأولى والأخيرة : « ولوكره المشركون » ، وختام الوسطى : « وكفى بالله شهيدا » .
(٧) ب ، م : « الكافرون » ، تحريف ، صوابه فى ط .

وكتب كِسرى إلى فَيْروزَ الدَّيلمىّ[١] ، وهو من بقية أصحاب سَيفِ بن ذى يَزَن : أَنِ احمِلْ إلىّ هذا العبدَ الذى بدأ باسمِه قبل اسمى ، واجترأ علىّ ، ودعانى إلى غير دينى ! فأتاه فيروزُ فقال : إنَّ ربى أمرنى أن أَحمِلَك إليه . فقال صلى الله عليه وسلم : « إنَّ ربِّى خبَّرنى أنَّه قد قتَل ربَّك البارحة ، فأَمْسِكْ علىَّ ريثَما يأْتيك الخبر ، فإن تبيَّن لك صدقى ، وإلَّا فأَنتَ على أَمرك » . فراع ذلك فَيروزَ وهالَه ، وكره الإقدامَ عليه ، والاستخفافَ به ، فإذا الخبر قد أَتاه : أنَّ شيرويه قد وثب عليه فى تلك الليلةِ فقتله . فأَسلم وأَخلص ، ودعَا مَنْ معه من بقيَّة الفُرس إلى الله عزّ ذكره[٢] فأَسلموا .

٣٨ — فصل منه[٣] فى ذكر النبى صلى الله عليه وآله

ثم إنَّ الذى تقدَّمه صلَّى الله عليه وآله من البُشارات فى الكتب المتقادِمة ، فى الأَزمان المتباعدة ، والبُلدان الموجودة بكلِّ مكان ، على شدة عداوة أَهلِها ، وتعصُّب حامليها ، ومع قوَّة حسدهم ، وشدَّة بغيهم . وما ذلك ببديعٍ منهم ومن آبائهم ، على أَنَّهم أَشبَهُ بآبائهم منهم بأَزمانهم . وكلُّ النَّاسِ أَشبه بأَزمانهم منهم بآبائهم . وآباؤهم الذين قتلوا أَنبياءَهم عليهم السلام ، وتعنَّتوا رسلهم صلى الله عليهم ، حتَّى خلَّاهم الله عزّ وجل من يده ، وأَفقدهم عِصمتَه وتوفيقه .

---

(١) فيروز الديلمى ، ويقال « فيروز بن الديلمى » كما فى ب ، وهو صحابى يكنى أبا الضحاك ، وأبا عبد الرحمن . وكان من أبناء الأساورة من فارس ، الذين كان كسرى قد بعثهم إلى قتال الحبشة . ووفد على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وبعد إسلامه رجع إلى اليمن وأعان على قتل الأسود العنسى الكذاب ، وأتى برأسه إلى النبى صلى الله عليه وسلم. وقد سكن مصر . ومات فى خلافة عثمان ، وقيل فى خلافة معاوية ، باليمن سنة ٥٣ . الإصابة ٧٠٠٤

(٢) م : « عز وجل » .

(٣) منه ، ساقطة من ب .

ولم استدلَّ على ذكره فى التَّوراة والإنجيل والزَّبور ، وعلى صِفته والبشارة به فى الكُتب إلَّا لأنَّك[١] متى وجدتَ النَّصرانىَّ واليَهودىَّ يُسلم بأَرض الشام وجدتَه يَعتلُّ بأُمورٍ ، ويحتجُّ بأَشياءَ مثلِ الأُمور التى يحتجُّ بها من أَسلم بالعراق . وكذلك من أَسلم بالحجاز ، ومن أَسلم من اليمن ، من غير تلاقٍ ولا تعارف ، ولا تَشاعُر[٢] . وكيف يتلاقَوْن ويتراسلون ، وهم غير متعارفين ولا مُتشاعرين؟ ولو كانوا كذلك لظهر ذلك ولم ينكتِم ، كما حكينا قبلَ هذا . ولو قابلتَ بين أَخبارهم واحتجاجِهم مع كثرة الأَلفاظ واختلاف المعانى ، لوجدتَها متساوية .

٣٩ ــ فصل منه

فإن قال قائل : لِمَ كانت أَعلامُ موسى عليه السلام فى كثرتِها[٣] مع غَىِّ بنى إسرائيل ، ونقصان أَحلام القبط ، فى وزنِ أَعلام محمد صلى الله عليه وسلم وفى قَدْرها ، مع أَحلام قريش ، وعُقول العرب .

ومتى أَحببتَ أَن تعرفَ غَىَّ بنى إسرائيل ونُقصان[٤] أَحلام القِبْط ، ورُجحان عقول العرب[٥] ، وأَحلام كنانة[٦] ، فأْتِ[٧] بَواديَهم ورِباعَهم . وانظر إلى بنِيهم[٨] وبقاياهم ، كما نظرتَ إلى بنى إسرائيل من اليهود[٩] وغىِّ بنى من مضى من القبط ــ تعتبرْ ذلك وتعرفْ

(١) ب ، م : « بأنك » .
(٢) انظر ما سبق فى ص ٢٥٠
(٣) ب ، م : « وكثرتها » .
(٤) ط : « ونقص » .
(٥) رجحان ، ساقطة من ب ، م .
(٦) ب ، م : « وأحكام كنانة » .
(٧) ط : « فانظر » .
(٨) ب : « بينهم » ، صوابه فى م ، ط .
(٩) ب ، م : « من اليهود عليهم لعنة الله تعالى وعز وبين من مضى من القبط » .

ما أَقول . ثم انظرْ فى أَشعار العرب الصَّحيحة (١) ، والخُطَب المعروفة ، والأَمثال المضروبة ، والأَلفاظ المشهورة ، والمعانى المذكورة ، ممَّا نقلتْه الجماعاتُ عن الجماعات ، وكلامِ العربِ ومعانيهم فى الجاهليَّة . ثم تفقَّدْ ، وسَلْ أَهلَ العلم والخِبْرة عن بنى إسرائيل ، فإنْ وجدتَ لهم مثلًا سائراً كما تَسمع لِلقبطِ والفُرس ، فضلًا عن العرب فقد أَبطَلْنا فيما قلنا .

وقد كان الرَّجلُ من العرب يقف المواقفَ ، ويسيِّر عدَّة أَمثال (٢) ، كلٌّ واحدٍ منها ركنٌ يُبنَى عليه ، وأَصلٌ يتفرَّع منه (٣) .

أَوْ هل تسمع لهم (٤) بكلامٍ شريفٍ ، أَو معنًى يستحسنُه أَهلُ التَّجرِبة ، وأَصحابُ التَّدبير والسياسة ، أَو حُكم (٥) أَو حِكْمة ، أَو حِذقٍ فى صناعة ، مع تَرادُف المُلْك فيهم ، وتَظاهُر الرِّسالة فى رجالهم .

وكيف لا تَقضِى عليهم بالغىِّ والجَهْل ، ولم تسمَعْ لهم بكلمةٍ فاخرةٍ ، أَو معنًى نَبيهٍ (٦) ، لا ممَّن كان فى المَبْدَى ، ولا ممَّن كان فى المحْضَر (٧) ، ولا من قاطنى السَّواد (٨) ، ولا مِن نازلى الشَّام ؟

ثم انظُرْ إلى أَولادهم مع طول لُبثهم فينا ، وكَونِهم معنا ، هل غيَّر

---

(١) هذا مافى م . وفى ب ، ط : « فى الأشعار الصحيحة » .

(٢) ب ، م : « ويسير عدة أميال » ط : « وينشئ عدة أمثال » ، وأثبت الصواب من بينهما .

(٣) ب ، م : « ركن يبنى وأصل لفرع منه » ، صوابه فى ط .

(٤) ب ، م : « أهم » ، صوابه فى ط .

(٥) ب ، م : « أو حكم » .

(٦) النبيه : الجليل المشهور . ب فقط : « بينة » ، تحريف .

(٧) المبدى : مكان خروجهم فى البادية ، خلاف المحضر فى الحاضرة . ب : « المبداء » م ، ط : « المبدأ » ، صوابهما ما أثبت .

(٨) ب فقط : « قاطن السواد » .

ذلك من أخلاقهم وشمائِلِهم ، وعقولِهم ، وأحلامهم ، وآدابهم ، وفِطَنهم ؟ فقد صَلَح بنا كثيرٌ من أُمور النَّصارى وغيرِهم .

وليس النَّصارى كاليهود ، لأنَّ اليهود كلَّهم من بنى إسرائل إلّا القليل .

وبعدُ ، فلم يضرِبْ فيهم غيرُهم ، لأنَّ مناكحهم مقصورةٌ فيهم ، ومحبوسةٌ عليهم ، فصُوَر أوّلهم مؤدَّاةٌ إلى آخرهم (١) ، وعقولُ أسلافهم مردودةٌ على أخلافِهم (٢) ، ثم اعتبر بقولهم لنبيّهم عليه السلام : ﴿ اجْعَلْ لنَا إلَهاً كما لَهُمْ آلِهَةٌ (٣) ﴾ حين مرُّوا على قومٍ يَعكُفُون على أصنامٍ لهم يعبدونها . وكقولهم : ﴿ أَرِنَا اللهَ جَهرةً (٤) ﴾ ، وكعكوفهم على عجلٍ صُنِع من حُليِّهم ، يعبدونه من دون الله ، بعد أن أراهم من الآيات ما أراهم . وكقولهم : ﴿ اذهَبْ أنتَ وربُّك فقاتِلَا إنَّا هَا هُنَا قَاعِدُون (٥) ﴾ ، فكان الذى جاء به مُوسى عليه السلامُ ، مع نَقْص بنى إسرائيل والقِبط ، مثلَ الذى جاء به محمدٌ صلى الله عليه وسلم ، مع رُجحانِ قريشٍ والعرب .

وكذلك وعدُ محمدٍ عليه السلامُ بنار الأبدِ ، كوعيد موسى بنى إسرائل بإلقاءِ الهُلَاس على زروعهم (٦) ، والهَمِّ على أفئدتهم ، وتَسْليط المُوتان على ماشيتهم (٧) ، وبإخراجهم من ديارهم ، وأنْ يظفر بهم

---

(١) فى جميع النسخ : « قصوراً ولهم مؤداة إلى آخره » ، وأرى الوجه فيما أثبت .

(٢) الأخلاف : جمع خلف ، بالتحريك ، وهو الولد صالحاً كان أو طالحاً . ب ، م « أخلاقهم » ، صوابه فى ط .

(٣) من الآية ١٣٨ من الأعراف .

(٤) من الآية ١٥٣ من النساء .

(٥) من الآية ٢٤ من المائدة .

(٦) الهلاس ، بالضم : شبه السل من الهزال . وفى سفر اللاويين ٢٦ : ١٦ : « أسلط عليكم رعباً وسلا وحمى تفنى العينين ، وتتلف النفس ، وتزرعون باطلا زرعكم فيأكله أعداؤكم » .

(٧) انظر سفر اللاويين ٢٦ : ٢٢ . والموتان ، بالضم ويفتح : موت يقع فى الماشية .

عدوُّهم . فكان تعجيل العذاب الأَدنى(١) فى استدعائهم واستمالتهم ، ورَدْعهم عمَّا يريد بهم ، وتعديل طبائعهم ، كتأْخير العذاب الشديد على غيرهم ، لأَنَّ الشديد(٢) المؤخَّر لا يزجُر إلَّا أَصحابَ النَّظر فى العواقب ، وأَصحابَ العقولِ التى تذهب فى المذاهب(٣) .

فسبحانَ من خالَفَ بين طبائعهم وشرائِعهم ليتَّفقوا على مصالحهم فى دُنْياهم ، ومَرَاشِدهم فى دينهم ، مع أَنَّ محمداً صلَّى الله عليه وسلم مخصوصٌ بعلامة لها فى العقل موقع ، كموقع فَلْق البحر من العَيْن ، وذلك قوله لقريشٍ خاصّةً ، وللعرب عامَّة ، مَعَ ما فيهما من الشُّعراء والخُطباء والبلغاءِ ، والدُّهاة والحُلَماء(٤) ، وأَصحابِ الرأْى والمكيدة ، والتَّجارب والنَّظر فى العاقبة : إنْ عارضتمونى بسورةٍ واحدةٍ فقد كذبتُ فى دعوایَ ، وصَدَقتم فى تكذيبى .

ولا يجوز أَن يكون مثلُ العربِ فى كثرة عددهم واختلافِ عللهم ، والكلامُ كلامُهم ، وهو سيِّدُ عملِهم ، فقد فاض بيانهم ، وجاشت به صدورهم ، وغلبتهم قُوّتُهم عليه عند أَنفسهم ، حتَّى قالوا فى الحيَّات والعقارب ، والذِّباب والكِلاب ، والخَنافس والجِعْلان ، والحميرِ والحَمام ، وكلِّ ما دبَّ ودرَج ، ولاح لعينٍ ، وخطر على قلب . ولهم بعدُ أَصنافُ النَّظمِ ، وضروبُ التأْليف ، كالقصيدِ(٥) ، والرَّجز ، والمزدوج ، والمُجانَس(٦) ، والأَسْجاع(٧) والمنثور .

---

(١) ب ، م : « الدون » .
(٢) ب فقط : « لأن العذاب » .
(٣) ب فقط : « بالمذاهب » .
(٤) الحلماء : ذوو الألباب والعقول . م فقط : « والحكماء » .
(٥) ب فقط : « كالقصة » .
(٦) هو ما عرف بعد بالجناس فى اصطلاح البلاغيين .
(٧) ب ، م : « الأشجاع » ، ط : « الأسماع » ، صوابهما ما أثبت .

وبعد ، فقد هَجَوْهُ من كلِّ جانب ، وهاجَى أَصحابُه شعراءَهم[(١)] ، ونازعوا خُطباءَهم ، وحاجُّوه فى المواقف ، وخاصَمُوه فى المواسم ، وبادَوْه العَداوة[(٢)] ، وناصَبُوه الحرب ، فقَتَل منهم ، وقَتَلوا منه ، وهم أَثبتُ النَّاسِ حِقداً ، وأَبعدُهم مطلباً ، وأَذكرهم لخير أَو لشرّ ، وأَنْفاهم له ، وأَهجاهم بالعَجْز ، وأَمدحهم بالقوَّة ، ثمَّ لا يُعارضه معارضٌ ، ولم يتكلَّف ذلك خطيبٌ ولا شاعر .

ومحالٌ فى التعارف ، ومستنكَرٌ فى التصادق ، أَن يكون الكلامُ أَخْصَر عندهم[(٣)] ، وأَيْسَرَ مَئُونةً عليهم ، وهو أَبلغ فى تكذيبهم وأَنقضُ[(٤)] لقوله ، وأَجدر أَن يعرف ذلك أَصحابُه[(٥)] فيجتمعوا على ترك استعماله ، والاستغناءِ به ، وهم يبذلون مُهَجَهُم[(٦)] وأَموالهم ، ويخرجون من ديارهم فى إطْفاءِ أَمره ، وفى توهينِ ما جاءَ به ، ولا يقولون ، بل لا يقول واحدٌ من جماعتهم : لِمَ تقتلون أَنفسكم[(٧)] ، وتستهلكون أَموالكم ، وتَخرجون من دِياركم ، والحيلةُ فى أَمره يسيرة ، والمأْخذ فى أَمره قريب ؟ ! ليؤلِّفْ واحدٌ من شعرائكم وخطبائكم كلاماً فى نظم كلامه ، كأَقصر سورة يُخذِّلكم بها ، وكأَصغر آيةٍ دعاكُم إلى معارضتها . بل لو نَسُوا ، ما تركَهم حتَّى يذكِّرَهم ، ولو تغافلوا ما ترك أَن ينبّههم ، بل لم يرض بالتَّنبيه دون التوقيف .

---

(١) ب : « وهجى أصحابه شعراؤهم » .

(٢) يقال باداه بالعداوة : جاهره بها . وبادره إلى الشىء : عاجله وسابقه . ووردت « العداوة » هنا متعدياً إليها الفعل بغير الحرف . وفى ط : « وبادروه العداوة » .

(٣) من الاختصار . وفى اللسان : « الاختصار فى الكلام أن تدع الفضول وتستوجز الذى يأتى على المعنى » .

(٤) ب ، م : « وأنقص » بالصاد المهملة .

(٥) ذلك ، من ط فقط .

(٦) ب ، م : « ويبذلون » ب فقط : « مهجعهم » ، صوابه فى م ، ط .

(٧) ب ، م : « ولم تقتلون أنفسكم » .

فدلَّ ذلك العاقلَ على أنَّ أَمرهم فى ذلك لا يخلو من أحد أمرين :

إمَّا أن يكونوا عَرَفوا عجزهم ، وأنَّ مثلَ ذلك لا يتهيَّأُ لهم ، فرأَوا أن الإضرابَ عن ذكره ، والتَّغافلَ عنه فى هذا الباب وإن قرّعهم به ، أمثَل لهم فى التدبير ، وأَجْدَر(١) أن لا يتكشَّفَ أمرُهم للجاهل والضَّعيف ، وأجدر أن يَجدوا إلى الدعوى سبيلًا ، وإلى اختداع الأنبياء سبباً ، فقد ادَّعَوا القُدرة بعد المعرفةِ بعجزِهم عنه ، وهو قوله عزّ ذكره : ﴿ وإذا تُتْلَى عليهم آياتُنا قالوا قد سَمِعْنا لَوْ نَشَاءُ لقُلْنَا مِثْلَ هذا(٢) ﴾ .

وهل يُذعِنُ الأَعرابُ وأَصحابُ الجاهليَّة للتَّقريع بالعجز(٣) ، والتَّوقيف على النقص ،ثم لا يبذلونَ مجهودهم ، ولا يخرجون مكنونهم(٤) وهم(٥) أشدُّ خلق الله عز وجل أَنَفَةً ، وأفرطُ حَمِيّةً ، وأطلبهُ بطائلة ، وقد سمِعوهُ(٦) فى كل مَنهلٍ ومَوقِف . والنَّاسُ مُوكَّلون بالخَطَابات ، مُولَعون بالبلاغات . فمن كان شاهداً فقد سمعه ، ومن كان غائباً فقد أتاه به من لم يُزوِّده(٧) .

وإمَّا أن يكونَ غيرُ ذلك .

ولا يجوز أن يُطْبِقوا(٨) على ترك المعارضةِ وهم يقدرون عليها ،

---

(١) ب ، م : « وأحذر » ، تحريف مافى ط .

(٢) الآية ٣١ من سورة الأنفال .

(٣) ب ، م : « والأعراب وأصحاب الجاهلية التفريع بالعجز » . وصواب النص وتمامه فى ط .

(٤) ب ، م : « ثم لا يبذل مجهودها ويخرج مكنونها » ، صوابه فى ط .

(٥) ب ، م : « وهو » .

(٦) ب ، م : « وقد سمعته » .

(٧) نظر إلى قول طرفة فى معلقته :

ستبدى لك الأيام ماكنت جاهلا ويأتيك بالأخبار من لم تزود

ب ، م : « يروده » ، صوابه فى ط .

(٨) ب ، م : « أن يطيقوا » ، تحريف مافى ط .

لأَنَّه لا يجوز على العدد الكثير من العُقَلاء والدهاة والحُلَماء[١] ، مع اختلاف عِلَلهم ، وبُعْد هِممهم ، وشدَّة عداوتهم الإطباقُ على بذل الكثير ، وصَون اليسير .

وهذا من ظاهر التَّدبير ، ومن جليل الأُمور التى لا تَخفَى على الجُهَّال فكيف على العقلاء ، وأَهل المعارف[٢] فكيف على الأَعداء ، لأَنَّ تحبير الكلام أَهْوَنُ من القِتال ، ومن إخراج المال .

ولم يُقَلْ[٣] : إنَّ القوم قد تركوا مساءلته[٤] فى القرآن والطَّعنَ فيه ، بعد أَن كثُرت خصومتهم فى غيره .

ويدلُّك على ذلك قولهُ عزّ وجلّ[٥] : ﴿ وقال الذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ القُرآنُ جُملةً واحدةً[٦] ﴾ وقوله عز ذكره : ﴿ وإذا تُتْلَى عليهم آياتُنا بيِّناتٍ قال الذين لا يَرْجُونَ لِقاءَنا ائْتِ بقُرآنٍ غَيرِ هذا أَوْ بدِّلْه[٧] ﴾ ، وقوله تعالى جل ذكره : ﴿ وقال الذِينَ كَفَرُوا إنْ هَذَا إلَّا إفْكٌ افْتَرَاهُ وأَعانَهُ عليه قَومٌ آخرونَ[٨] ﴾ .

ويدلُّك كثرةُ هذه المراجَعةَ ، وطولُ هذه المناقلة ، على أَنَّ التقريع[٩] لهم بالعَجْز كان فاشياً ، وأَنَّ عجزَهم كان ظاهراً .

---

(١) ط فقط : « والحكماء » بالكاف . وانظر ما سبق فى ٢٧٥ .
(٢) ب ، م : « وعلى المعارف » ، تحريف مافى ط .
(٣) م ، ب : « ولم تقل » ، وأثبت مافى ط .
(٤) م : « مسايلته » ، وهى لغة جائزة فيها .
(٥) ذلك ، ساقطة من ب . وفى ب ، م : « عز ذكره » .
(٦) الآية ٣٢ من الفرقان . وفى م : « أنزل عليه » تحريف .
(٧) الآية ١٥ من يونس .
(٨) الآية ٤ من الفرقان .
(٩) م ، ط : « التفريع » ، صوابه فى ب .

ولو لم يكن النبيُّ صلى الله عليه وسلم تَحدَّاهم بالنَّظرَ والتأْليف(١)، ولم يكن أَيضاً أَزاحَ عِلَّتهم، حتَّى قال تعالى: ﴿ قلْ فأْتُوا بعَشْر سُوَرٍ مثلِهِ مُفْتَرَيات(٢) ﴾ وعارِضُونى بالكذب، لقد كان فى تفصيله له وتركيبه، وتقديمه له واحتجاجه، ما يدعو إلى معارضته ومغالبته وطلب مَسَاويه.

ولو لم يكن تحدَّاهم من كلٍّ ما قلنا، وقرَّعهم بالعَجْز عمَّا وصفنا— وهلْ هذا(٣) إلَّا بمديحه له، وإكثاره فيه — لكان ذلك سبباً مُوجباً لمعارضَتِه ومُغالبته وطلبِ تكذيبه، إذْ كان كلامُهم هو سيِّدَ عملهم، والمئونةُ فيه أَخفُّ عليهم، وقد بَذَلوا النُّفوسَ والأَموال. وكيف ضاعَ منهم، وسَقَط على جماعتهم نيِّفاً وعشرين سنة، مع كَثْرةِ عددهم، وشِدَّة عُقولهم، واجتماع كلمتهم؟!

وهذا أَمرٌ جليلُ الرَّأْى، ظاهرُ التدبير(٤).

٤٠ — فصل منه فى ذكر امتناعهم من معارضة القرآن لعلمهم بعجزهم عنها(٥)

والذى مَنَعهم من ذلك هو الذى منع ابن أَبى العَوْجاء(٦)، وإسحاق بن

(١) ب، م: «والتأليف».

(٢) الآية ١٣ من سورة هود. وبدلها فى ب، م: «فهاتوا مفتريات»، ويصح هذا الكلام لو لم يكن مسبوقاً بكلمة «تعالى».

(٣) ب، م: «قل هذا».

(٤) بعده فى ب: «لا يحمل من ابتداء القول فيه وساربه»، وفى م: «لحمل من ابتدأ القول فيه وساربه»، وهاتان العبارتان لم تردا فى ط.

(٥) ط: «فى كراهة امتناعهم عن معارضة القرآن لعجزهم عنها»، صوابه فى ب، م

(٦) هو عبد الكريم بن أبى العوجاء، من بنى عمرو بن ثعلبة بن عامر بن ذهل بن ثعلبة بن عكابة، وكان أحد الزنادقة، صلبه محمد بن سليمان بن على بن عبد الله بن العباس بالبصرة. جمهرة ابن حزم ٣١٦. وكان خال معن بن زائدة، وجمع بين أربعة أنواع من الضلالة: كان يرى فى السردين المانوية من الثنوية، وكان يقول بالتناسخ، وكان يميل إلى رأى الرافضة فى الإمامة، والرابع قوله بالقدر فى أبواب التعديل والتجوير. الفرق بين الفرق ٢٥٥ — ٢٥٦.

طالوت(١) ، والنعمان بن المنذرِ ،وأشباهَهم من الأرجاس ، الذين استبدلوا بالعزِّ ذُلًّا ، وبالإيمان كُفْراً ، والسَّعادةِ شِقوةً(٢) ، وبالحجَّة شُبْهةً .

بل لا شُبْهة فى الزَّندقة خاصّة . فقد كانوا يَصنَعُون الآثار ، ويولِّدون الأَخبار ، ويبثُّونها فى الأَمصار ، ويَطعنون فى القرآن ، ويَسأَلون عن مُتشابِهِ ، وعن خاصِّهِ وعامِّه(٣) ، ويضعون الكتبَ على أهله . وليس شىءٌ مِمَّا ذكرنا يستطيع دَفْعَه جاهلٌ غبىٌّ(٤) ، ولا معانِدٌ ذكىّ .

٤١ — فصل منه

ولمَّا كان أَعجبُ الأُمورِ عندقومِ فرعونَ السِّحرَ ، ولم يكن أَصحابُه قطُّ فى زمانٍ أَشدَّ استحكاماً فيه منهم فى زمانه ، بعث الله موسى عليه السلام على إبطالِه وتَوهينه ، وكشْفِ ضَعْفه وإظهاره ، ونقض أَصله(٥) لردع الأَغبياءِ من القوم(٦) ، ولمن نشأَ على ذلك من السّفلة والطَّغام . لأَنَّه لو كان أَتاهم بكلِّ شىءٍ ، ولم يأْتِهم بمعارضة السِّحر حتَّى يفصل بين الحجّة والحيلة ، لكانت نفوسُهم إلى ذلك متطلِّعة ، ولَاعتلَّ به أَصحاب الأَشغاب(٧) ، ولشغلوا به بالَ الضَّعيف(٨) ، ولكن الله تعالى جدُّه ، أَراد حَسْم الداءِ ، وقَطْعَ المادة ، وأَن لا يجدَ المُبْطلون متعلَّقا ،

(١) يبدو أنه أحد الزنادقة ، ولم أجد له خبراً .

(٢) ب ، م : « شقاوة » ، وهما بمعنى ما يقابل السعادة . وفى التنزيل العزيز : « ربنا غلبت علينا شقوتنا » ، وقرأ ابن مسعود : « شقاوتنا » .

(٣) ب : « وعن خاصة وعامة » ، صوابه فى م ، ط .

(٤) ب : « عى » م : « غى » ، صوابهما فى ط .

(٥) ب فقط : « ونقص أصله » ، تحريف .

(٦) بدل هذا كله فى ب : « لأغبيا القوم » وفى م : « الأغنياء القوم »

(٧) الأشغاب : جمع شغب ، بالتحريك ، وهى لغة ضعيفة فى الشغب ، بالفتح ، وهو تهييج الشر . وفى ب : « الأشعاب » وفى ط : « الأشغال » ، وأثبت مافى م .

(٨) ب فقط : « باب الضعيف » .

ولا إلى اختداع الضُّعفاءِ سبيلًا[١] ، مع ما أَعطى الله موسى عليه السَّلام من سائر البرهانات ، وضروب العلامات .

وكذلك زَمنُ عيسى عليه السلام كان الأَغلبُ على أهله ، وعلى خاصّة علمائِه الطِّبَّ ، وكانت عوامُّهم تعظِّم على ذلك خواصَّهم ، فأَرسَله الله عزّ وجلّ بإحياءِ المَوْتَى ، إِذْ كانت[٢] غايتهم علاجَ المرضى . وأَبرأَ لهم الأَكمه[٣] إِذْ كانت غايتهم علاجَ الرَّمِد[٤] ، مع ما أَعطاه الله عزّ وجلّ من سائر العلامات ، وضروبِ الآيات ؛ لأَنَّ الخاصَّة إذا بَخَعت بالطَّاعة[٥] ، وقهرتها الحجَّة ، وعَرفَتْ موضعَ العجز والقُوَّة ، وفَصْلَ ما بين الآيةِ والحيلة ، كان أَنجعَ للعامَّة ، وأَجدر[٦] أن لا يبقى فى أَنفسهم بقيَّة .

وكذلك دَهْرُ محمّدٍ صلى الله عليه وسلم ، كان أَغلبُ الأُمور عليهم ، وأَحسنُها عندهم ، وأَجلُّها فى صدورهم ، حُسْنَ البيانِ ، ونَظْمَ ضروبِ الكلام ، مع عِلمهم له ، وانفرادِهم به . فحين استحكمت لفهمهم[٧] وشاعت البلاغةُ فيهم ، وكثُر شعراؤُهم ، وفاقَ النَّاسَ خطباؤُهم ، بعثَه الله عزّ وجلّ ، فتحدَّاهم بما كانوا لا يشكُّون أَنَّهم يقدرون على أَكثَرَ منه .

---

(١) ب ، م : « للضعفا سبيلا » .

(٢) ب فقط : « إذا كانت »

(٣) ب : « وإبرائهم الأكمه » تحريف . وفى ط : « وإبراء الأكمه » ، وأثبت مافى م . والأكمه : الذى يولد أعمى .

(٤) الرمد : وجع العين وانتفاخها ، وهو أرمد ورمد ، والأنثى رمداء . ب ، م : « الرمدى » ، صوابه فى ط .

(٥) بخعت : خضعت وأقرت . وفى ط فقط : « نجعت » تحريف وانظر ما مضى فى ص ٢٥٥ .

(٦) ب فقط : « واحدر » ، تحريف .

(٧) لفهمهم ، ساقطة من ب .

فلم يَزلْ يقرِّعهم بعجزِهم ، وينتقِصُهم على نَقْصهم[١] ، حتى تبيَّن ذلك لضعفائهم وعوامِّهم ، كما تبيَّن لأَقويائهم وخَواصِّهم . وكان ذلك من أَعجب ما آتاه اللهُ نبيًّا قطُّ[٢] ، مع سائر ما جاءَ به من الآيات ، ومن ضُروب البُرهانات .

ولكلِّ شيءٍ بابٌ ومَأْتًى ، واختصارٌ وتقريب . فمِن أَحكمِ الحكمة إرسالُ كلِّ نَبيٍّ بما يفحِمُ أَعجَبَ الأُمورِ عندهم[٣] ، ويُبْطِلُ أَقوى الأَشياء فى ظَنِّهم .

٤٢ ــ فصل فى ذكر أخلاق النبى صلى الله عليه وسلم

وآيةٌ أُخرى لا يَعرِفها إلَّا الخاصَّة ، ومتى ذكرتُ الخاصَّةَ فالعامَّةُ فى ذلك مثلُ الخاصَّة . وهى الأَخلاق والأَفعال التى لم تجتمع لبشرٍ قطُّ قبلَه[٤] ، ولا تجتمع لبشَرٍ بعده .

وذلك أَنَّا لم نَرَ ولم نسمعْ لأَحدٍ قطُّ كصَبرِه ، ولا كحلمِه ، ولا كوفائه ، ولا كزُهده ، ولا كجُوده ، ولا كنجدته ، ولا كصدْقِ لهجتِه ، وكرم عِشْرتِه[٥] ، ولا كتواضُعه ، ولا كعِلمه ، ولا كحِفْظه ، ولا كصمتِه إذا صَمَت ، ولا كقوله إذا قال ، ولا كعجيب مَنشئِه[٦] ، ولا كقلَّة

---

(١) انتقصه واستنقصه : نسب إليه النقصان . ب ، م : « ينقفهم » ، ط : « ينقصهم » ، والوجه ما أثبت .

(٢) لفظ الجلالة ثابت فى ط فقط .

(٣) أصل الإفحام الإسكات عن الجواب ، والمراد الفوق والغلبة . ب ، م : « يفهم » صوابه فى ط .

(٤) ب ، م : « لبشرى » فى هذا الموضع وتاليه . وأثبت مافى ط . والبشر : الإنسان ، يطلق على الواحد والمثنى والجمع والمذكر والمؤنث .وقد يجمع على أبشار ، ويثنى كما فى قوله تعالى : « أنؤمن لبشرين مثلنا » .

(٥) العشرة : المخالطة والمصاحبة . وفى جميع النسخ : «عشيرته» ، صوابه ما أثبت . وأما عشيرة الرجل فهم بنو أبيه الأقربون وقبيلته .

(٦) ب ، م : « منشاه » .

تلوّنه ، ولا كعَفوِهِ ، ولا كدوام طريقته ، وقلّة امتنانه .

ولم نَجِد(١) شجاعاً قطُّ إلّا وقد جال جَولةً ، وفرَّ فرّة ، وانحاز مَرّة ، من مَعدودِي شُجعان الإسلام ، ومشهورِي فُرْسان الجاهليَّة ، كفلان وفلان .

وبَعْدُ ، فقد نَصَرَ النبيَّ صلى الله عليه وسلم وهاجَرَ معه قومٌ ، ولم نر كنجدتهم نَجْدَةً ، ولا كصبرهم صبراً . وقد كانت لهم الْجَوْلةُ والفَرَّة(٢) ، كما قد بلغك عن يوم أُحد ، وعن يومِ حُنَين ، وغير ذلك من الوقائع والأَيَّام .

فلا يستطيع منافقٌ ولا زِنديقٌ ولا دُهريٌّ ، أَنْ يحدِّث أَنَّ محمداً عليه السلام جال جَولةً قطُّ(٣) ، ولا فَرّ فَرّةً قطُّ ، ولا خَام عن غَزْوة ، ولا هابَ(٤) حَرْبَ من كاثره .

---

(١) ب ، م : « ولم تجد » بالتاء .

(٢) ب ، م : « والعزة » ، وليست مرادة هنا .

(٣) ب ، م : « فقط » فى هذا الموضع وتاليه ، والصواب فى ط .

(٤) ب ، م : « وهاب » .